المشرق

السنة الحادية والثلاثون — ايار ١٩٣٣

شهداء نجران

رسالة شمعون اسقف «بيت أرشم»

في الاضطهاد الذي حلّ بالنصارى الحميريّين سنة ٥٢٤ للمسيح

عرّبها عن الاصل السرياني
القس يوحنا عزّو كاتم أسرار البطريركية الانطاكية السريانية

١

توطئة

في عهد باباي الجاثليق شمعون اول من تبوّأ كرسيّ المدائن من الجثالقة النساطرة سنة ٤٩٧ م خلفاً لاقاق . وكان يعرف بابن هرمز ، وعلى عهده عُرف اولًا في نصيبين عيد الشعانين، ومن ثمة ذاع استعماله في اقطار الشرق ؛ في ذاك العهد ، اشتهر شمعون هذا اسقف «بيت ارشم»[1] صاحب الرسالة التي نعنى بها اليوم. قال عنه السمعاني : انه كان مستقيم الايمان.

١) بيت ارشم: قرية قريبة من سلبق.

لكنه ترك النسطرة ، وانحاز الى فئة القائلين بالطبيعة الواحدة في المسيح حسبما يظهر من رسالة كتبها في بدعة نسطور وانتشارها . وقبل رسالة زينون الملك المعروفة « بالهينيپيكون » مغضياً عن المجمع الخلقيدوني المقدّس ، وشارك في الدين انستاس الملك واخسنايا وتبرص الرهاوي وغيرهم ، ووالى الملكة تئودورا. وجعل يجوب بلاد مادي وفارس وما بين النهرين مستحثاً النصارى على رذل البدعة النسطورية والتمسك بمذهب القائلين بالطبيعة الواحدة ، معتضداً بقباد ملك الفرس . حتى قال عنه العلامة ابن العبري انه ردّ كثيرين من وجوه المجوس الى النصرانية . ونظم ترجمته يوحنا مطران آسية في تواريخ الشرقيين الطوباويين مثنياً عليه وعادّه من نحلته .

وكان شمعون عالماً شهيراً في زمانه حتى لقب « بالفيلسوف الفارسي » . ومن مؤلفاته نافور او قدّاس مطلعه « ايها الاله حياة الجميع ونورهم » ، ورسالة في بدعة نسطور وبواعث انتشارها والشرور التي اتاها برصوم . وله الرسالة التي ننشرها اليوم معرّبة عن اصلها السرياني الذي طُبع اولاً في رومة العظمى سنة ١٨٨١ . ثم اعاد طبعها في ليبسيك المرحوم الاب بيجان اللعازري سنة ١٨٩٠ واودعها الجزء الاول من كتابه « اخبار الشهداء والقديسين » . وقد انفذها الكاتب من حيرة النعمان ، وهي من بلاد بابل بجوار عقولا اي الكوفة ، الى شمعون رئيس دير « جابولا » الواقع في ضواحي حلب . يصف فيها ما قاسى النصارى في بلاد حمير من الملك اليهودي الذي ملك ثمة بمبالأة الفرس سنة ٥٢٤ للمسيح .

اما الحميريون فهم السبائيون او سكان اليمن ، بلاد العرب السعيدة ، عاصمتهم نجران واقعة على مسيرة عشرين يوماً من مكة . كانوا قد انضموا الى راية الايمان عن يد مار برتلماوس الرسول ، على ما يقال . ثم تورّطوا في ضلال الاريوسيين . الا انهم رذلوه بعد ذلك ولبثوا قويي المعتقد . وكانوا يدينون لملوك الحبشة ، ويؤدّون لهم الجزية . وكان لهؤلاء حقّ في اقامة ملك عليهم . فلما مات ملكهم لم يتأتّ لاسبان ، ملك الحبشة ، في فصل الشتاء ، ان يجتاز البحر الاحمر ويشخص اليهم لاقامة ملك يخلف المتوفى . وكان اليهود ذوي نفوذ وبأس بينهم ، فانتهزوا فرصة تخلف اسبان عن الشخوص اليهم ونادوا برجل يدعي ذا نوّاس ملكاً

عليهم . وهذا اهلك من النصارى ما يتعادّ على العشرين الفاً .

قال ياقوت الحموي : ان اهل نجران عاصمة بلاد الحميريين اطبقوا على اتباع دين عيسى على اثر مشاهدتهم المعجزة التي افتعلها فيمون اذ بصلواته ارسل الله ريحاً زعزعاً فجعفت النخلة التي كانوا يعبدونها من جذرها . وكان هذا فيمون اسيراً نصرانياً ابتاعه عبد الله بن تامر احد اشراف نجران .

وهذه هي الرسالة :

الرسالة

نعرّف حبّكم اننا في ٢٠ كانون الثاني سنة ٨٣٥ للاسكندر (الموافقة سنة ٥٢٤ للمسيح) ، خرجنا من حيرة النعمان ، مع القسيس مار ابراهيم بن اوفروس ، الذي اوفده يوستنيان ملك الروم الى المنذر ملك الحيرة ليعمل على السلم مع الرومانيين . وقد اتينا على ذكره في رسالتنا الاولى بقولنا اننا والمؤمنين الذين عندنا نقرّ بفضله ونسوق اليه عاطفة العرفان والشكران لانه يتذرّع بكل ذريعة لمساعدة جماعة المؤمنين . وقد وقف على ما كتبناه سابقاً وما نكتبه الآن .

بعد ان جدّ بنا السير في الفلاة جنوباً وشرقاً مسير عشرة ايام انتهينا الى الملك المنذر تجاه الجبال التي يدعوها العرب بلسانهم « الرملة » . ولما ولجنا سرادق المنذر ثار بنا العرب الوثنيون والمعدّيون وتثوّلوا علينا قائلين ان : « ماذا في وسعكم ان تصنعوا منذ اليوم فصاعداً ؟ فها ان مسيحكم قد طُرد من بلاد الرومانيين والفرس والحميريين ، بل من سائر البلاد . » وعلقوا يقذعوننا ، والقس مار ابراهيم ، بفظيع التعييرات ، ويوسعوننا سبّاً وشتماً . فتقسّمتنا الهموم ، ونشبت في فؤادنا كآبة عظمى ، وتولانا ألم مذيب من شأنه ان يلذع المؤمنين المحقّين قاطبة . ونحن كذلك اذا برسول من ملك الحميريين الى المنذر ملك الحيرة اقترب منا ، وقد مسّ بيافوخه السماك تغطرساً ، وهو حامل رسالة فيها يعرّفه بعبارة ملؤها الزهو والتبجح ما افرغ على نصارى نجران ، عاصمة الحميريين ، من اكواب الاسواء ، وما انزل بهم من تباريح الاعذبة ، قال :

« ان الملك الذي اقامه الحبشة في بلادنا قد مات . وحلول فصل الشتاء

ثبطهم عن امّ بلادنا على الاثر . فاستأثرت انا بالملك على بلاد الحميريين . وعنّ لي ان افتتح ملكي بالعمل على امتحاق النصارى وابادتهم عن بكرة ابيهم من هذه البلاد بأسرها ، او يتهوّدون مثلنا ويكفرون بالمسيح . فتأتى لي بداءة ذي بدء. ان اصانع الحبشة المتخلفين في بلادنا لحراسة البيعة التي خُيّل اليهم انهم ابتنوها فيها . فتمكنت من القاء القبض عليهم ونحرهم عن آخرهم ، وهم يعدّون ٢٨٠ رجلاً من راهب وعلماني ، واحلت بيعتهم الى كنيس لنا.

« وعندئذ عبّأت جيوشاً من ١٢٠ الف عسكري (كذا)، واخذتهم في قيادتي ، وانطلقت الى العاصمة نجران وحاصرتها اياماً مديدة كُتب عليّ في غضونها الخيبة ولم افلح. واذ لاح لي ان لا حيلة لتدويخها حرباً اخلدت الى المدالسة ، فاقسمت لهم وأمّنتهم بميثاق غليظ ان لا ينالهم سوء ولا تشوكهم مني شوكة ان اعطوني مقادتهم وسلّموا اليّ المدينة طوعاً . ففتحوا الابواب من فورهم وبرز اليّ رؤساؤهم منقادين . فتراءى لي انه لا يجدر بي ان أبرّ بقسمي وامحض النصارى اعدائي الصدقَ ، فحكمت على ألّا أفي بالعهد والامانة . فسألتهم بادئ بدء. ان يأتوني بذهبهم وفضّتهم وسائر مقتناهم . فلبوا الامر لساعتهم ، وجاؤوا به امامي . فسألتهم ان يروني اسقفهم بولس . فاجابوا انه قد مات . فلم اصدّقهم حتى اروني قبره . فنبشته ، واخرجت عظامه ودفعتها طعمة الى النيران ، واحرقت على اثرها ايضاً بيعتهم وكهنتهم مع مَن وما وُجدَ فيها . ثم عرضت عليهم الكفران بالمسيح نفسه وبالصليب ، والتهوّد مثلنا. فابوا كل الاباء. منكرين عليّ ذلك . فقلت لهم : ان الرومانيين قد اصبحوا على ثقة من ان المسيح كان بشراً فلماذا تغوون وراءه ؟ ألعلّكم خير منهم ؟ وانا لا نسومكم الكفران بالله ، صانع السماء والارض ، ولا ندعوكم الى السجود للشمس او القمر او احدى النيّرات او لكائن من الكائنات ، بل نروم ان تكفروا بيسوع الذي عدّ نفسه الهاً ، وهو ليس باله ، وتعترفون به انساناً . واستحثثناهم على ذلك بضروب المواعيد والتوعّدات . فابوا الكفران به ، ولم يشاءوا ان يقولوا انه بشر ، بل والوا التمسّك بغوايتهم ومسّهم قائلين انه اله وابن الرحمان. وآثروا الموت عنه. وبلغ الحمق من زعيمهم ان يغلظ لنا في الكلام. فجوزي بما استحقّ ،

وقُتل وزعماؤهم جميعاً . اما البقية فهربوا وتواروا عن العيان ، ولم نقف بعد على اثرهم . فاصدرنا الامر بقتلهم حيث يُعثر عليهم، او يكفروا بالمسيح ويتهوّدوا مثلنا .

«وحينئذٍ استقدمنا نساءهم ، وقلنا لهنّ : «ها قد عاينتنّ بنواظركنّ ملحمة جميع رجالكنّ ، لانهم جدفوا قائلين انّ المسيح اله وابن الله . فـارأفنَ انتنّ ، والحالة هذه ، بنفوسكنّ وبنيكنّ وبنـاتكنّ ، واكفرن بالمسيح وبالصليب ، وتهوّدن نظيرنا فتحيينَ . والا فاستهـدفنّ للموت الاحمر الزؤام .» فكان جوابهنّ مفاضلة رجالهنّ بالتجديف قائلات : «انّ المسيح لهو اله وابن الرحمان ، وبه نؤمن ، ولصليبه نسجد ، وعنه نموت . حاشانا ان نكفر به او نحيا دون رجالنـا ، بل نموت معهم ونظيرهم عن المسيح .» وأحفينـا في السؤال ليقلنَ ان المسيح بشر ويحيين ، فلم يتزلنَ عند بغيتنا . واستحببن الموت على الكفران بذلك الساحر المضلّ . وكان بين هؤلاء ممن يدعين راهبات . وأيم الحق قد خبأ لنا الـدهر من مشاهدتنا ايّاهن عجباً ، لمّا كنّ يتشاجرن على السبـاق الى منقع القتل مع اللواتي مات رجالهنّ ، ويتلحّحن عليهنّ ليقتلنَ اولاً ؛ بينـا انّ هؤلاء يأبينَ ويتهرّبنَ قائلات : «اننا احقّ بالقتل اولاً لنقفو آثار رجالنا .» وصرنَ يبادرنَ الى اقناع بعضهنّ بالتوسّل والالتماس في ايّة منهنّ تموت اوّلاً . وكنا نستغرب في الضحك لدن نظرنا تشاجرهنّ ، وسمعنا توسّلهنّ الى بعضهنّ في من تموت اولاً . بل كنا نستفظع جنونهنّ ، وكيف غوين وراء الرجل الذي جرؤ على التجديف بعدّه نفسه الهاً . وممّا ملك علينا أمرنا هو ان الفتيان ايضاً ، الذين كنا نظنّ انهم لا يعقلون شيئاً ، كانوا ينشأون في الغواية ذاتها . اخيراً حسماً لمشاجرتهنّ مع بعضهنّ في حالة عتاهتهنّ امرنا فقُتلن عن آخرتهنّ ، مستبقين امرأة واحـدة فقط منهنّ لسبب جاهها وعترتها وجمالها ، ظنّاً منا عساها ان تشفق على نفسهـا وبناتها ، وتذعن للكفران بالمسيح . فامرنا ان لا تقتل . اما هي فلانها لم تمت ثار ثائرها ودخلت المدينة كئيبة حزينة .

«وفي اليوم الثالث اوفدنا من يقول لها ان تكفر بالمسيح فتحيا، والا فتموت . فبادرت على اثر سماعها ذلك ، وبرزت الى السوق حاسرة الرأس ، سافرة المحيّا ، وتوسّطت المدينة ، مع انّ وجهها لم يره احد منذ يفعت قطّ ولم تكن لتسير في

المدينة نهارًا او ليلًا قبل اليوم، على ما خلص الينا . وقد روى لنا الشهود العيان آنئذٍ انها كانت تصيح قائلة : «أيتها النساء النجرانيات رصيفاتي من نصرانيات، ويهوديات، ووثنيات ، اسمعنني : انكنّ لعارفات أنني نصرانية، وملمّات بعترتي وعشيرتي ومَن وابنة مَن انا، ودرايات بما لديّ من ذهب وفضة وعبيد واماء وضياع وغلال، ولا يعوزني شيء . والآن قد قتل بعلي في سبيل المسيح . فان كنت اروم ان أكون لرجل آخر فلا ينقصني الرجل ، بل متوافرون الراغبون فيّ . بيد اني اصرّح لكنّ اني في هذا اليوم عينه لديّ اربعون الف دينار مختومة ومودعة خزانتي، عدا ما في خزانة زوجي ، وخلا ما في حيازتي من الذهب والفضة والمصوّغات والجواهر واليواقيت واليشب حليتي . وقد يوجد من حظي منكنّ بمشاهدتها مع حللي الجميلة وثيابي الفاخرة في داري . وانكنّ لتعلمن ، يا لِـداتي ، بأن ليس للمرأة ايام غبطة وسرور تحاكي ايام عرسها ، اذ منها فصاعدًا تتتالى الضيقات والكرب : فان ولدت البنين فبالآنات والاوجاع تلدهم ، واذا عقمت وحرمت البنين فتضحى فريسة الهمّ والغمّ ، وان دفنت البنين فبالبكاء والندب تقبرهم . اما انا فقد فطمت من اليوم فصاعدًا من هذه كلها . وقد كنت ايام عرسي الاول عائمة في بحابح الهناء والرخاء . وهوذا بناتي الخمس بتولات لانهنّ لم يصرن لرجل ، زيّنتهنّ بكلّ ابتهاج المسيح . الا انعمنّ النظر فيّ ، يا رفيقاتي ، فترين انكنّ قد حظيتنّ برؤية وجهي مرّتين : احداهما في عرسي الاول اذ دخلت الى خطيبي الاول سافرةَ المحيّا امامكنّ جميعًا ، والثانية هي اليوم لاني ذاهبة سافرةَ المحيّا ايضًا الى المسيح ربّي والهي واله بناتي الا انظرن اليّ ، يا زميلاتي . انظرنَ بجمّكنّ اليّ ، والى بناتي ، فاننا لا نقلّ عنكنّ وسامة وصباحة . فبهذا الجمال غير الملوّث بكفر اليهود ، اذهب الى المسيح ربّي . وجمالي عينه يكون لي شاهدًا امام الهي على انه لم يستطع ان يذويني باثم الكفران بـه ، بل ان ذهبي وفضّتي ومصوغ حليّ بأسره ، وعبيدي وامائي ، وسائر ما تملكه يميني ، كل هذا يكون لي شاهد عدل على اني لم اشغف بشيء . واكفر بالمسيح ربي . والآن قد ارسل اليّ الملك العاتي لاكفرنّ بالمسيح واحيا . اما انا فاجبته : ان كفرت بالمسيح امت ، وان متّ في سبيله أعش . حاشاي ، يا زميلاتي ، حاشاي ان اكفر

بالمسيح الهي مَن به آمنت ، وباسمه اعتمدت وعمّدت بنـاتي ! واني اسجـد لصليبه ، وأموت في سبيله ؛ انا وبناتي مثلما هو مات عنّا وبسبينا . وها اننا ندع ذهب الارض للارض ، وكل مَن تحدّثه نفسه بأخذه فليكن لـه ، وكل من يرغب في فضتي ومصوغ زينتي فليأخذها . فـاني أتخلى عن كلّ شيء لاذهب آخذ عوضـه من المسيح . طوبى لكنّ ، يا رفيقـاتي ، ان اصغتنّ اليّ وقبلتنّ كلماتي ! طوبى لكنّ ، يا حبيباتي ، ان عرفتنّ صدق مَن نموت ، انا وبناتي ، في سبيل حبه ! طوبى لكنّ ، ان احببتنّ المسيح ! بل طوبى لي ولبنـاتي الى آية غبطة ذاهبات ! والآن فليملك الامن والسلام على شعب المسيح ، وليضحينّ دم اخوتي واخواتي الذين قتلوا من اجل المسيح سورًا حصينًا لهذه المدينة ؛ ان لبثت في دين المسيح ربي . ها اني خارجة مسفرة الوجه ، مشرقة الجبين ، من هـذه البلدة حيث كنت فيها كفي قبة الشهادة لاذهب وبناتي الى مدينـة اخرى خطبتهنّ اليها . فصلّين علينا ، أيا رصيفاتي ، ليقبلني المسيح ويجود عليّ بالمغفرة ، لاني بقيت في هذه الحياة ثلثة ايام بعد ابي بناتي .»

«فبلغ الى مسمعنا صوت الولولة والنحيب من المدينة ، فارتعنا له جميعًا ، لاننا لم نكن لندري بداعي عويل النسوة . ولمّا آب الينا الرجال الذين كنا ارسلناهم لاستطلاع الخبر وأنهوا الينا بجميع ما فاهت به هـذه الجسورة على مسمع من المدينة جمعاء ، فعلقت النساء يبكين وينحن ، صحّت عزيمتنا على قتلهم لو لم يُشفع فيها ، لانهم تركوها تفوه بمثل هذا الكلام وتغوي المدينة بسحرها .

«ونحن لكذلك اذا بها خرجت من المدينة حاسرة الرأس كالممسوسة ، واتت ومثلت امامي سافرة الوجه ، غير خجلة ، وممسكة بيديها بناتها مزيّنات كأنهنّ يذهبنّ الى وليمة الاعراس . فحلّت ضفائر شعرها ، ولفّتها على يديهـا ، ورفعت رأسها ، ومدّت عنقها وانحنت امامي قائلة بصوت عالٍ : « اني وبناتي نصرانيات وغوت عن المسيح ، فحزّ رؤوسنا لننطلق وندرك اخوتنا واخواتنا وابا بناتي .»

اما انا ، فرغم هذا الجنون كله ، استأنفت محاولة اقناعهـا بالترغيب والترهيب وضروب المجاملة وصنوف التهاويل لتكفر بالمسيح وتقول فقط انه بشر . فابت ذلك بتاتًا ، بل أدّى ذلك بصغرى بناتها الى التجرؤ على امتهاني من جراء مـا

قلت لاما . واذ رأيت ان لا وسيلة لحملها على الكفران بالمسيح امرت ، ارهاباً للنصارى طرّا ، بأن تلقى على الارض ويذبح بنلتها اولًا ويسكب دمهنّ في فيها . وبعدئذٍ يؤخذ رأسها . وهكذا صار . وعلى اثر ذبح بناتها ، أمرت فاقيمت عن الارض . فبادرتها بالسؤال قائلًا: « كيف وجدتِ مذاق دم بناتك ؟ » فاقسمت في خبلها بذلك الغاوي انها وجدته كقربان طاهر بلا عيب في فمها وفي نفسها . فامرنا بجزّ رأسها . بيد انني اقسم بالله العزيز ملك اسرائيل اني اكتأبت جدًّا جدًّا لسبب وضاءتها وحسنها وجمال بناتها . وعراني الذهول من خبالها الذي ساقها الى ان تنوي وراء رجل ساحر مضلّ دفعته الجرأة الى ان يجدّف ويجعل نفسه الهًا ، ولم تأخذها الرأفة بنفسها وببناتها .

« اما في شأن بني القتلى وبناتهم فقد رأى عظماء كهنتنا ونحن ان نصنع معهم ما كُتب في الشريعة لئلا يجازي الابن بجرائر ابيه . فامرنا ان يخلّى سبيلهم حتى يبلغوا سنّ الرشد ، وحينئذٍ يحيون ان كفروا بالمسيح وتهوّدوا ، والا فيموتون هم ايضاً ان نسجوا على منوال والديهم . وقد وزّعناهم على كبرائنا .

« ها قد سردت لجلالتك كتابةً هذه الامور كلها ليثلج صدرك عند اطلاعك على اننا لم ندع نصرانيًا واحدًا في بلادنا . فاصنعنّ انت ايضاً على شاكلتنا باجالتك جميع النصارى الذين تحت سلطانك الى ديانتك . اما في شأن اليهود الموجودين تحت إمرتك فترغب ان تهوي اليهم بيد المساعدة في كل امر وشأن . وكلما تبتغي جلالتك قبالة ذلك اطلعنا عليه لنبعث به اليك مسرورين . »

هذا ماكتبه ملك الحميريّين الى المنذر ملك الحيرة ، ونحن عنده في البرية ، مع القسيس الفاضل مار ابراهيم بن اوفروس الآنف الذكر ، الذي ارسله الملك يوستينيان صحبة اسقف « بيت رصفة » القديس مار سرجيوس ليوطّد دعائم الصلح بين عرب الفرس والرومانيين . على ان الرسالة المومأ اليها لم تأتِ على ذكر امتهان الشهداء الطوباويّين والمرأة الفاضلة وبناتها ملك الحميريّين . انما الرسول روى ذلك مشافهةً للمنذر ملك الحيرة هازئًا بالنصارى بحضرة اليهود والوثنيين ، فاولاهم حبورًا ، واذاقنا غمًّا عظيماً . فما نسرده اذًا في هذه الرسالة مأثور عن كتابة الملك ، وعن رواية الرسول.

(لها صلة)

الحزينة

نشرنا في ما مضى (مشرق كانون الاول ١٩٣٢) قصيدة بعنوان « الغريبة » مقتطعة من رواية «حمى الامير» التي يضعها الاستاذ كرم البستاني. وها اننا نقتطع اليوم هذه القصيدة الثانية بعنوان «الحزينة»

قعدتْ وحدَها الحزينةُ تشكو. يا لشكوى الحزينةِ المسكينه !
تصعدُ الزفرة الممزّقة القلب ، وتستنزف الدموعَ سخينه !
انا ما بين غامضات الاماني ، قلِقٌ روحه بعيدُ السكينه .
ليت شعري ! يعود لي انسُ نفسي ، وتداوى جراح قلبي الثخينه !

اسمعيني حفيفَ صوتك ، يا ارواحَ موتايَ ، من هضابِ الخلودِ .
اسمعينيه ! علّني انفض الوحشة عني ، فلا املَّ وجودي .
شجعيني ! فلا اهاب حياةً مُلئت بالعذاب والتنكيد .
ان في صوتك السماويّ سحرًا منعشًا لي ، ملطّفًا تسهيدي .

خبّريني أين السبيلُ الى الراحة من مرهقات هذي الحياةِ ؟
اعلى الشامخات بين ركام السحب ، ام في المغاور الموحشاتِ ؟
ام تراها في الغابِ ، بين زفير الغاب ، ام في مجاهل الفلواتِ ؟
ويح نفسي! نندى ندائي ! وهل في سعة الروح ان تعي كلماتي !

انا بين الآلام ابكي . فيا طولَ بكائي ! ويا مرارةَ وجدي !
اين حُلم الصبا ؟ واين احبّائي ؟ مضوا كلّهم ، وخُلّفتُ وحدي !
سبقوني الى البقاء . وما كان بقائي ، من بعدهم ، صدقَ وُدّ !
اشتهي رقدة على ضفةِ الجدولِ ، يلتفّ نبتها فوق لحدي .

حينا يهبطُ الظلامُ ، وتسري نفحاتُ النسيم همسًا خفيًّا ،
تتهادى على مراقدهم روحي ، تردّ الانين رجعًا شجيًّا .
لحُنها آهةُ الوجيع ، مجاجاتُ ذبيحٍ ، يهفو مجزورًا ذكيًّا .
كيف لا يقتلي فؤادي حنينًا ! كان لي كلّهم محبًّا وفيًّا !

محاولات في درس جبران

السُلافة

او

آخر ما كتبه جبران خليل جبران

بقلم امين خالد

السلافة لغةً خلاصة الخمرة . وقد اخترنا هذه اللفظة للكناية عن الكتاب الذي اشتمل على زبدة افكار جبران الرئيسية ، وعاطفته الاساسية ، وقد اصدره قبيل وفاته ببضعة ايام دون ان يترك مجالًا للتقوّلات والتأويل . عنينا به كتاب « آلهة الارض »[1]

لقد جرى جبران في هذا الكتاب على اسلوب لم يتبعه في مؤلَّفٍ مما تقدَّمه . وهو الاسلوب السقراطي ، اي طريقة البحث في سياق مناقشة يتكلم فيها ثلاثة من الآلهة « المولودين في الارض ، واسياد الحياة على الجبال » . ولا غرو في ذلك فالانسان في عهد الانتاج الناضج يميل الى بحث المبادئ التي كانت في عهد الصبا تصدر مع زفراته الوجدانية .

لم يطلق جبران على احدٍ من آلهته اسماً يدلّ على هدف الاله صاحب الاسم ، ولم يصف احدًا منهم او يحدِّده . وقد اكتفى لتمييزهم بالاعداد الترتيبية : الاوّل ، والثاني ، والثالث . واقتصر في بيان ماهيَّتهم على كونهم « مولودين في الارض وارباب الحياة في اعالي هذه الارض . » ولكن غاية كل اله معروفة من مآل النظريّة التي يجعلها محور لهجته .

وفي هذا الصدد يجب ان نتساءل هل يمثّل احد الآلهة الثلاثة شخصيّة

---

١) آلهة الارض . وضعه بالانكليزية جبران خليل جبران . وعرّبه الارشمندريت انطونيوس بشير – ٤٠ صفحة متوسطة ، المطبعة العصرية ، مصر ، ١٩٣٢ .

جبران ، وأيها هو ، ام هل سكب جبران من نفسه كؤوساً مختلفة على السنة كل من الثلاثة.

كلا ، لا يمكن للكاتب المبتكر ان يتجه في آنٍ واحد نحو النزعات المتعاكسة المتناقضة لئلا يصبح كالببغاء يردد عبارات هذا المبدأ ، وجمل تلك العقيدة ، دون ان يكون متغذياً بسرّ واحدةٍ منها . واذا صحّ شبه التغذي بالمبادئ المختلفة عند فيلسوف عالم فلا يسع الكاتب الشاعر الّا تفضيل مذهب تتغلب موافقته لميوله فيمسي حامل العلَم.

ولقد رأينا ان «الاله الثالث» من «ابناء الارض» هو الذي يريد جبران ان يحمله بوقه الخاص . وذلك لاسباب عديدة نذكر منها :

١ً ان مرامي الاله الثالث تجانس — وحدها — الخطة الاجمالية التي تمشّى عليها جبران في جميع مؤلفاته السابقة ، حيث يضرب على وتر الحب البشري الخالد بين الرجل والمرأة ، مع تقديس تلك العاطفة الجنسية وتحريرها من ربقة النظام العقلي والشرع اللاانساني ، والالم الذي يحصرها ضمن نطاق الزمان والمكان ويخمد تأججها المستمرّ.

٢ً يفيض كل من الالهين الاول والثاني في جدالهما بالثلثين الاولين من الكتاب من قريحةٍ جيدة ونفس تستطيب الجهاد في سبيل الدفاع عن الغاية المنشودة ، فيلقي الواحد منها صحيفةً او صحيفتين او ثلاث صحائف ، ويجاوبه الآخر بمثلها ، والاله الثالث يستمع جدالهما ، ويلقي من حين لآخر نبذةً لا تتجاوز الاربعة او الخمسة الاسطر ، حاكياً شيئاً يشغل باله بكليته ، غير منتبه الى المواضيع التي تدور مناقشة زميليه حولها . واما في الثلث الاخير فتتضاءل اهمية الالهين الاوّلين وتتلاشى في استسلام الثاني ونوم الاوّل . وتتغلّب بلاغة الاله الثالث الى ان يلفظ الكلمة النهائية راوياً فوزه بالافضلية . وليس من المنطق ان يعبّر عن نزعة الكاتب غير صاحب الافضلية النهائية .

فما هو موضوع المناقشة الكبرى بين الالهة ؟ وما هو موقف كلّ منها ؟ وكيف كان الفوز بالختام نصيب الاله الثالث ؟

الموضوع ! المفاضلة بين مشارب الآلهة الثلاثة لابراز المبدأ الاكبر الذي يجب

ان يكون دستورًا لاتجاهات الحياة.

وازاء هذا الموضوع يتخذ الاله الاول موقف «الجبّار» الذي يترفّع على كل ما بالوجود، حتى على الرفعة نفسها، فهو يتكبّر على قبول التضحية الانسانية، ويرى انها:

هي رائحة الميتونة المحترقة على لهيبها الضئيل.
وهي تملأ دقائق الهواء بوفرة،
فتزعج حواسي كما يزعجها الهواء الفاسد في الهاوية(١ .

ومن حديثه:

ان قلبي يحترق عطشاً، بيد انني لا اريد ان اشرب دماً ضعيفاً لجنس ضعيف،
لان الكاس ملطخة، والعصير الذي فيها مرّ المذاق في فمي.(٢

ويتشامخ بأنفة مرّة وازدراء، محتقرًا كل شعور بالحياة:

باطلة هي اليقظة وفارغ هو النوم.
وثلاث مرات باطل وفارغ هو الحلم. (٣

ويتعالى بذاته على الالوهية المتناهية والسموّ المحدود:

القبّرة تنادي القبّرة،
ولكن النسر يحوم فوقها،
وهي لا تتوقف لتصغي الى الانشاد.
انت تريد ان تعلق محبة الذات متكسّلةً بعبادة الانسان، وراضيةً بعبودية الانسان.
ولكن محبة ذاتي لا حدّ لها ولا قياس.
فانا اريد ان اسمو على ما يموت مني في الارض،
واتخذ لي عرشاً في السموات.
فامنطق الفضاء بذراعيّ، واحيط بالافلاك.
واريد ان اتخذ من المجرّة قوساً،
ومن المذنبات سهاماً،
وباللانهاية اريد ان احكم اللانهاية.(٤

ويتخذ الاله الثاني موقف «الحكيم». فيحاول شرح الادوار التي مرّت بها الكائنات منذ القدم حتى وجد الانسان. ويريد ان يبحث ويصيغ النظام

---

١) آلهة الارض، ص ٦
٢) آلهة الارض، ص ٩
٣) آلهة الارض، ص ١٠
٤) آلهة الارض، ص ١٧–١٨

الاجمالي الذي يرتّب لكلٍّ درجةً في اوج العمران ومصير الخليقــة . واساس فلسفة هذا الاله الثاني يتفق مع مرامي المستبدّين العادلين . قال :

انني لست مغرورًا بهذا المقدار لاغني ان لا أكون .
فانا لا اقدر ان اختار الا اصعب الطرق . . .
لاخض الانسان من الظلمة السريّة ،
ولكني احفظ لجذوره حنينها الى الارض ،
لاغرس فيه العطش للحياة ، واجعل الموت حامل اقدامه ، لاعطيه المحبة النامية بالالم ، المتسامية بالشوق ، المتزايدة بالحنين ، والمضمحلّة بالعناق الاول .
لأمنطق لياليه باحلام الايام العلوية ،
واسكب في ايامه رؤى الليالي المقدّسة ،
ثم احكم على ايامه ولياليه بالمماثلة التي لا تتغير . . .

لامنحه مسرّةً ليترنّم امامنا ،
وكآبةً ليلتجئ الينا ، . . .

هكذا يليق بنا ان نحكم الانسان الى منتهى الزمان ،
مقيّدين النسمة التي تبدأ بصراخ أمه ،
وتنتهي بنواح اولاده . . . (١

فقد ولد الانسان للعبوديّة ،
وبالعبودية شرفه ومكافأته . (٢

واما الاله الثالث الذي نرى انه يمثل شخصية جبران فهو اقرب الى بطل « المواكب » ونايه وغنائه منه الى آلهة التفكير والمباحثة . ولذلك لا يعير زميليه الّا اليسير من اصغائه ، لا من انتباهه :

فان شابًا في ذلك الوادي
ينشد مكنونات قلبه في اذن الليل . . . (٣
وفي غابة الريحان تلك فتاة ترقص للقمر . . . (٤
ان الشاب يغني في اعماق الوادي (٥ . . .

---

١) آلهة الارض ، ص ٨–٩   ٢) آلهة الارض ، ص ١٦
٣) « « ص ٧–٨   ٤) « « ص ١١
٥) « « ص ١٣

ان قدسي الراقصة الحسناء قد سكرتا بخمرة الانشاد (١ ...
ان الفتاة قد وجدت المرنم (٢ ...
ان روحين سائرتين الى النجوم قد اجتمعتا في الجو للحساب (٣ ...

...

هكذا يروي الكاتب حديث الاله الثالث في الثلثين الاولين من الكتاب دون ان يستغرق خطابه في كل مرة بعض الصفحة . ولكنه عندما يصل الى هذا الحدّ ، وقبيل ختام المؤلف ، يطلق عنان البلاغة لالـه « القيثارة » فيُفصح هذا عن « الجوهر الفرد » الذي لم تكن بهجته لتخبو او تفقد لمانها في اثر من آثار جبران ، ولا سيما في نهاية تلك المؤلفات وفي منزاها ، كما هي في اتجاهاتها العامة . ولا يسعنا ان نعتقد بان جبران يميل الى غير النزعة التي نرى الاله الثالث يلفظ كلمة بها صريحة واضحة . لان جبران لم يكن مرآة تعكس انوار النعرات المكتسبة ، بل كان شعلة ينير من مادة فؤاده الخاصة . واذا اتى على ذكر جبروت الاله الاول ، او حكمة الاله الثاني وعدله ونظامه ، فيكون ذلك لازماً له لاظهار افضلية الاله الثالث الخاص . ولنستمع الى كلمته النهائية ، مخاطباً الالهين الاول والثاني :

اني اتكلّم ايها الاخوان النافلان ،
اني اتكلم بالحقيقة ، ...
انظرا ، رجلاً وامرأة ،
لهيباً على لهيب ،
يذوبان وجداً وهياماً ...
ان نفسنا التي هي نفس الحياة ، نفسكما ونفسي ،
انما تعيم الليلة في حلق ملتهب ،
مجلّلة جسم فتاة طاهرة بثوب من الامواج الثائرة .
ان صولجانكما لن يغيّر هذه القسمة المعدّة لنا ،
وهمومكما هي الطموح بعينه .
لان هذا جميعه سيمحى من الوجود في هوى الرجل والمرأة . (٤

١) آلهة الارض ، ص ١٧
٢) آلهة الارض ، ص ٢٢
٣) « « ص ٢٦
٤) آلهة الارض ، ص ٢٩–٣١

واذ يسأل الاله الثاني عن « شأن هذه المحبة بين الرجل والمرأة » يجيبه متذمرًا من الحكمة والمعرفة اللتين قد تحولان بين الانسان وبين رغباته :

أفٍ من الالم الذي تولّده المعرفة . . .
فيا اخوتي ، آلهة الارض
اننا وان كنا في اعلى الجبل ،
فنحن ما زلنا نسير على الارض –
بواسطة الانسان الراغب في الساعات الذهبية التي في نصيب اخيه الانسان .
فهل تسلب حكمتنا الجمال من عينيه ؟
ام هل نُخضع مقاييسُنا أهواءه فنحملها الى السكون ، او تقودها الى مستوى أصواتنا ؟
ماذا تقدر ان تصنع جيوش افكاركم –
حيث تجتمع المحبة بجيوشها الجرّارة ؟ . . .
نحن بالحقيقة كل ما وراء العالم وكل ما فوقه
ولكن المحبة أبعد من ان تصل اليها اشتنا –
واسمى من ان تبلغ اليها انشودتنا . (١

اما هذه المحبة فهي كما يحددها الاله المذكور لاخويه ، وفي كل جملة من هذا التحديد شعاع يلقي نورًا ساطعًا على نزعات جبران التي حاولنا تحديدها في درس مؤلفاته السابقة . واننا ننقل هذا الخطاب برمّته ، كي لا ننسب الى اقتطاع ما يوافقنا من اقوال الكاتب . قال الاله الثالث :

قد انتصرت المحبة .
سواء أكانت المحبة ياضًا ناصعًا او خضرة زاهية بجانب بحيرة ، او كانت جلالًا وفخارًا في القباب الرفيعة ، او كانت في بستان حافل بالناس ، او في صحراء لم تطأها قدم الانسان ،
فالمحبة هي ربنا ومعلمنا في كل حال .
فهي ليست بالشهوة الزائلة في الجسد .
ولا هي فُتاتُ الرغبة المتساقط من مصارعة الرغبة للذات ،
كلا ، ولا هي بالجسد الحامل سلاحه على الروح .
لان المحبة لا تعرف الثورة .
ولكنها تهجر طريق الاقدار القديمة لتسير الى الغابة المقدسة ،
لترقص وتترنم باناشيد اسرارها في آذان الابدية .
المحبة شباب قد تحطمت قيوده ،
ورجولة قد تحررت من عناء الارض ،

١) آلهة الارض ، ص ٣٢–٣٤

وانوثة حارة بلهيب مقدس ، مشرقة بنور سماء أجمى من سمائنا .
المحبة ، ضحك بعيد في اعماق الروح .
المحبة ، حماة قديرة تسير بك الى يقظتك .
المحبة ، فجر جديد على الارض ،
ويوم لم تصل اليه لا عينك ولا عيني ،
ولكن المحبة قد وصلت الى قدس اقداسه بقلبها الاعظم .
يا أخويَّ ، يا أخويَّ ،
ان العروس قادمة من قلب الفجر .
لتلاقي عروسها القادم من الغروب .
وسيكون عرسٌ في الوادي ،
ويومٌ اعظم من ان تدوّن حوادثه . (١

وهذه في ما يلي آخر خطبة للاله الثالث يفوه بها منتصراً على زميليه في تلك المناقشة الطويلة ، وقد جعلها الكاتب مسك الختام ، ملخصاً بها فكرته . ونحن ننقلها بحرفيتها ايضاً :

اني امضي الآن فاجرّد نفسي من حدود الزمان والمكان ،
وارقص في ذلك الحقل الذي لم تطأه قدما انسان ،
وستتحرك قدما الراقصة مع قدميَّ ،
وسأترنم في ذلك الملأ الاعلى ؛
وسيختلج صوتٌ بشريٌّ مع صوتي .
سنعبر الى الشفق البعيد ،
فقد نستيقظ في فجر عالم آخر .
ولكن المحبة باقية ،
ولن تمحى آثار أصابعها .
ان الكور المقدس متاجج بالنار ،
وكل شعلة تصعد منه هي شمس محترقة .
فالاجدر بنا ، والأحكم لمصلحتنا —
ان نفتّش عن قرنة صغيرة فننام في الوهيتنا الارضية ،
تاركين ا.ر قيادتنا الى اليوم المقبل ، الى المحبة البشرية الضعيفة . (٢

فيتضح من كل ما تقدم ان فكرة جبران لم تتغيّر في جوهرها من «الاجنحة المتكسرة» الى «آلهة الارض» .

---

١) آلهة الارض ، ص ٢٦-٢٧
٢) آلهة الارض ، ص ٢٩

ابن عبد ربه و «عقده»

درس ادبي تاريخي

بقلم جبرائيل جبّور
احد اساتذة الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية

٨

بعض نواحي خلقه وأثرها في العقد (تابع)

ميله للدعابة والفكاهة والنوادر والقصص

وكان في طبعه، فيما يظهر لنا، ميل للدعابة والمزح والفكاهة. وقد أثّر هذا الميل فيما نقله في عقده عن اخبار المتقدّمين من ناحية نوعها وطريق سردها، فترى فيه كتاباً خاصاً في الفكاهات والملح فرش لداره بما يأتي: «هي نزهة النفس وربيع القلب ومرتع السمع ومجلب الراحة ومعدن السرور» واستشهد بعد هذا الفرش بالنبي العربي وعلي ورجال الاسلام الاول وغيرهم على صحة ما ذهب اليه، كأن يورد مثلاً «قال النبي: روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة»، او «قال النبي: يدخل عثمان الجنّة ضاحكاً لانه كان يضحكني»، او «قال ابن اسحق: وقد طرب الصالحون وضحكوا ومزحوا»، او «وفي بعض الكتب المترجمة ان يوحنا وشمعون كانا من الحواريّين وكان يوحنا لا يجلس مجلساً الا ضحك واضحك من حوله، وكان شمعون لا يجلس مجلساً الا بكى وابكى من حوله. فقال شمعون ليوحنا ما اكثر ضحكك كانك قد فرغت من عملك. فقال له يوحنا ما اكثر بكاءك كأنك قد يئست من ربّك. فاوحى الله الى المسيح ان احبّ السيرتين اليَّ سيرة يوحنا.»

ويرى القارئ في هذا الكتاب كثيراً من القصص الشائقة التي يظهر ان ابن

عبد ربه قصد الى الفكاهة في تدوينها ، لا الى التاريخ . من هـذه القصص قصة عن العباس بن الاحنف ، واخرى عن المجرّد (وهب الشاعر) ، واخرى عن يوم دارة جلجل ، واخرى عن دعبل وصريع الغواني . وهناك قصص متعـددة قصيرة عن الرشيد وجواريه وشعرائه كابي نؤاس وغيره ، وفيه قصة عن عمر بن ابي ربيعة مع ابي مسهر العذري ، واخرى طويلة عن اسحق الموصلي والمـأمون وكيف تمّ زواج الاخير ببوران . وهناك قصة الناسك الذي كان له سمن في جرّة معلقة واخذ يبني بخياله قصورًا فاثرى وتزوّج وصار ابًا ، واخذ يؤدّب ابنه وقال كذا بعصاه ، فكسر الجرّة وتحطّمت الآمال والمنى .

وان في هذا الكتاب لمجموعة من القصص تشبـه من كثير من النواحي القصص المعروفة في كتاب الف ليلة وليلة . بل ان قصة اسحق الموصلي والمأمون قد وردت في كلا المصدرين : العقد ، والف ليلة وليلة . وتتفق اكثر هذه القصص مع قصص الف ليلة وليلة من ناحية بذاءة اللفظ وسفالة المعنى . ولعلّ ابن عبد ربه ، من هذه الناحية ، واحد من قدماء المؤلفين في العربية الذين جمعوا قصصًا من عصور مختلفة ودوّنوها في كتاب واحد .

وقد ذكر ابن عبـد ربه في هـذا الكتاب شيئًا من النوادر لاسيما نوادر اشعب ، وهي قصص صغيرة . وجعـل في الكتاب ايضًا بابًا خاصًا عنونـه بالمضحكات اكثرها قد دار على لفظ بذيء او معنى سافل[1] . ومنها ما نستطيع ان نرويه بشيء من التردد . وغايتنا في روايتها اطلاع القارئ على نوع النكتة في بعض هذه المضحكات :

« (الزبير) قال حدثنا بكار بن[2] رباح[3] قال : كان بمكة رجل يجمع[4] بين الرجال والنساء ويحمل لهم الشراب . فشكي الى عامل مكة فنفاه الى عرفات . فبنى بها منزلًا وارسل الى اخوانه فقال : ما منعكم ان تعاودوا ما كنتم فيه ؟ قالوا : واين بك وانت في عرفات ؟ قال : حمار بدرهم ، وقد صرتم على الامن والنزهة . ففعلوا فكانوا يركبون اليـه حتى فسدت احداث مكة . فاعادوا شكايته الى والي مكة فارسل اليه فاتي به فقال : يا عدوّ الله ، طردتك فصرت تفسد في المشعر الحرام . قال : يكذبون عليّ ، [5] اصلح الله الامير ! فقالوا : اصلحك الله ! الدليل على صحة ما نقول ان تأمر بجميع حمير مكة ، فترسل بها امناء الى عرفات فيرسلوهـا فان يمتدوا الى منزله دون المنازل كعادتها فنحن غير مبطلين . فقال الوالي : ان في هذا لدليـلًا وشاهدًا عدلًا . فامر بجمير من حمر مكة التي للكراء فأرسلت فصارت الى منزله كانها جا عليه

دليلٌ. فاعلمه بذلك امناؤه. فقال: ما بعد هذا شيء، جرّدوه. فلما نظر الى السياط قال: لا بدّ اصلحك الله من ضربي؟ قال: نعم، يا عدوّ الله. قال: والله ما في ذلك شيء هو اشدّ عليّ من ان يشمت بنا اهل العراق ويضحكون منا ويقولون اهل مكّة يجيزون شهادة الحمير. (قال) فضحك الوالي وخلّى سبيله.» (١

ولم يقتصر امر الفكاهات والملح على هذا الكتاب الخاصّ، بل قد تعدّاه الى كتاب آخر هو الجمانة الثانية في المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين. وظاهرٌ من موضوع هذا الكتاب ان المسحة التي ستغلب فيه انما هي مسحة المزاح والفكاهة. ولقد فرش ابن عبد ربه لدار هذا الكتاب بقوله:

« فان اخبارهم حدائق مونقة ورياض زاهرة لما فيها من طرفة ونادرة فكاهما انوار مزخرفة او حال منشرة دانية القطوف من جاني ثمرها قريبة المسافة لمن طلبها. فاذا تأملها الناظر واصغى اليها السامع وجدها ملهى للسمع ومرتعًا للنظر وسكنًا للروح ولقاحًا للعقل وسميرًا في الوحدة وانيسًا في الوحشة وصاحبًا في السفر وانيسًا في الحضر.» (٢

واورد في هذا الكتاب نوادر كثيرة من الخير ان نذكر بعضها ليرى القارئ نوع الفكاهة التي كان يرغب في تدوينها قال:

« ادّعى رجلٌ النبوّة بالبصرة فاتي به سليمان بن عليّ مقيّدًا. فقال له: انت نبيّ مرسل؟ قال: اما الساعة فاني مقيّد. قال: ويحك من بعثك؟ قال ابهذا يخاطب الانبياء، يا ضعيف، والله لولا اني مقيّد لامرت جبريل يدمدمها عليكم. قال: فالمقيّد لا تجاب له دعوة؟ قال: نعم! الانبياء خاصة اذا قيّدت لم يرتفع دعاؤها. فضحك سليمان فقال له: انا اطلقك وامر جبريل فان اطاعك امنّا بك وصدقناك. قال: صدق الله فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم. فضحك سليمان، وسأل عنه فشهد عنده انه ممرور فخلّى سبيله.» (٣

وقال:

« اخذ رجل ادّعى النبوّة ايام المهدي فادخل عليه فقال له: انت نبي؟ قال: نعم! قال: والى من بُعثت؟ قال أَوَ تركتموني اذهب الى احد؟ ساعة بعثت وضعتموني في الحبس. فضحك منه المهدي وخلّى سبيله.» (٤

وهناك قصة لا بأس بذكرها ايضًا على سبيل التمثيل على نوع الفكاهة في هذا الكتاب، وتزيدك ان تلاحظ ايضًا ما قد يشتمّ فيها من الدعوة لحبّ آل عليّ:

« (العتبي) قال: سمعت ابا عبد الرحمن بشرًا يقول: كان في زمن المهدي رجل صوفي،

١) ابن عبد ربه ٣: ٤٤٨ ٢) ابن عبد ربه ٣: ٢٠٤
٣) « « ٣: ٢٠٥ ٤) « « ٣: ٢٠٥

وكان عاقلاً عالماً فيجدّ ليجد السبيل الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكان يركب قصبة في كل جمعة يومين الاثنين والخميس فاذا ركب في هذين اليومين فليس لمعلم على صبيانه حكم ولا طاعة . فيخرج ويخرج معه الرجال والنساء والصبيان . فيصعد تلاً وينادي باعلى صوته : ما فعل النبيّون والمرسلون أليسوا في اعلى عليّين ؟ فيقولون : نعم . قال : هاتوا ابا بكر الصديق . فأخذ غلام فأجلس بين يديه . فيقول : جزاك الله خيراً ، ابا بكر ، عن الرعية . فقد عدلت وقمت بالقسط وخلفت محمداً عليه الصلاة والسلام في حسن الخلافة، ووصلت حبل الدين بعد حلّ وتنازع وفرغت منه الى اوثق عروة واحسن ثقة . اذهبوا به الى اعلى عليّين . ثم ينادي : هاتوا عمر . فأجلس بين يديه غلام . فقال : جزاك الله خيراً ، ابا حفص ، عن الاسلام قد فتحت الفتوح ووسّعت الفيء وسلكت سبيل الصالحين وعدلت في الرعية . اذهبوا به الى اعلى عليّين بحذاء ابي بكر . ثم يقول : هاتوا عثمان . فاتي بغلام فاجلس بين يديه . فيقول له : خلطت في تلك السنين ، ولكن الله تعالى يقول خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله ان يتوب عليهم . ثم يقول اذهبوا به الى صاحبيه في اعلى عليين . ثم يقول : هاتوا علي ابن ابي طالب . فاجلس غلام بين يديه فيقول : جزاك الله عن الامة خيراً ، ابا الحسن ، فانت الوصي وولي النبي بسطت العدل وزهدت في الدنيا واعتزلت الفيء، فلم تخمش فيه بناب ولا ظفر . وانت ابو الذرية المباركة وزوج الزكية الطاهرة . اذهبوا به الى اعلى عليين الفردوس . ثم يقول : هاتوا معاوية . فأجلس بين يديه صبيّ . فقال له : انت القاتل عمار ابن ياسر وخزيمة بن ثابت ذا الشهادتين وحجر بن الادبر الكندي الذي اخلقت وجهه العبادة . وانت الذي جعل الخلافة ملكاً واستأثر بالفيء وحكم بالهوى واستبطر بالنعمة . وانت اول من غيّر سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقض احكامه وقام بالبغي . اذهبوا به فاوقفوه مع الظلمة . ثم قال : هاتوا يزيد . فاجلس بين يديه غلام . فقال له : يا قوّاد انت الذي قتلت اهل الحرّة واباحت المدينة ثلاثة ايام وانتهكت حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وآويت الملحدين وبؤت باللعنة على لسان رسول الله . . . وتمثلت بشعر الجاهلية

ليت اشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الاسل

وقتلت حسيناً وحملت بنات رسول الله . . . سبايا على حقائب الابل . اذهبوا به الى الدرك الاسفل من النار . ولا يزال يذكر والياً بعد والٍ حتى بلغ الى عمر بن عبد العزيز فقال : هاتوا عمر . فاتي بغلام فاجلس بين يديه . فقال : جزاك الله خيراً عن الاسلام فقد احييت العدل بعد موته وألنت القلوب القاسية وقام بك عمود الدين على ساق بعد شقاق ونفاق . اذهبوا به فالحقوه بالصدّيقين . ثم ذكر من كان بعده من الخلفاء الى ان بلغ دولة بني العباس فسكت . فقيل له : هذا ابو العباس امير المؤمنين . قال : فبلغ امرنا الى بني هاشم . ارفعوا احساب هؤلاء جملة واقذفوا بهم في النار جميعاً » (١

ويرى القارئ في كلا الكتابين قصصاً كثيرة في الفكاهة والمزاح كثر فيها

(١ ابن عبد ربه ٣ : ٣٠٦

قبيح اللفظ وسافل المعنى . وليس هنا موضع البحث في ما تمثله هـذه القصص من روح مجتمعات القوم في تلك العصور حتى زمن ابن عبد ربه ، وميلهم الى الفكاهات التي كانت تصطبغ بمثل هذه المعاني والالفاظ البذيئة ، ولم تخلُ كتب العقد الاخرى من ملح ونوادر وفكاهات نثرها ابن عبد ربه هنا وهناك ، او تعليقات ظهر فيها ميله للفكاهات والنكتة كتعليقه الذي ذكرنا فيما سبق على شعر ضعيف: واقل ما يقال في هذا الشعر ان يضرب صاحبه كذا وراويه كذا الخ . ولعلنا سنعرض لشيء من ميل ابن عبد ربه هذا ، عنـد بحثنا عن شعره وفنّ الهجو فيه .

قيمته الادبية

لا جدال في ان اقوى ظاهرة تبدو في العقد هي مسحته الادبيّـة . وان القارئ يشعر بهذه المسحة في كل كتب العقد . ولعلّ ابن عبد ربه قد قصد الى هذا الامر اذ يظهر من قوله في مقدّمة عقده انه اعتنى في ان يكون كتابه مجموعة من متخيّر جواهر الاداب ومحصول جوامع البيان وقـد رأيناه لا يعنى كثيراً بالاسناد لان اخباره فيما يقول « اخبار ممتعة وحكم ونوادر لا ينفعها الاسناد باتصاله ولا يضرها ما حذف منها . » ورأينا كذلك انه عمد الى اختصار أخباره « طلباً للاستخفاف والايجاز ، وهرباً من التثقيل والتطويل » ، وانه يفتخر في انه احسن الاختصار واجاد الاختيار: « وقصدت من جملة الاخبار وفنون الآثار الى اشرفها جوهرًا واظهرها رونقاً والطفها معنى واجزلها لفظاً واحسنها ديباجة واكثرها طلاوة وحلاوة آخذاً بقول الله تبارك وتعالى : الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » . وقد اشرنا في بحثنا عن قيمة العقد التاريخية أن غاية صاحبه قبل كل شيء ادبية . ولعله لم يجمع هذه الفنون المختلفة في عقـده ـــ حتى كاد يكون دائرة معارف مختصرة لعلوم عصره ـــ الا لانه كان يرى ذلك من شروط الادب ، قال :

« فان كان لا بد لك من طلب ادوات الكتابة فتصفّح من رسائل المتقدمين مـا يعتمد عليه ومن رسائل المتأخرين ما يرجع اليه ومن نوادر الكلام مـا تستعين بـه ومن الاشعار والاخبار والسير والاسماء ما يتسع به منطقك ويطول بـه قلمك وانظر في كتب المقامات

والخطب ومجاوبة العرب في حروبهم ومعاني العجم (كذا) وحدود المنطق وامثال الفرس ورسائلهم وعهودهم وسيرهم ووقائعهم ومكايدهم في حروبهم بعد ان تكون متوسطاً علم النحو والغريب والوثائق والسور وكتب السجلات والامانات » (١

وروى في عقدة قال :

« قال عبدالله بن مسلم بن قتيبة من اراد ان يكون عالماً فليطلب فناً واحداً ومن اراد ان يكون اديباً فليتفنن في العلوم » (٢

وقد وفق ابن عبد ربه في تحقيق غايته ، وسبق الكثيرين ممن بحثوا قبله في هذه الناحية نفسها ، وامتاز على بعضهم بالوضوح وسهولة المأخذ ، وعلى غيرهم بالترتيب والتنسيق ، وعلى عمومهم في ان كتابه كان جامعاً لاكثر علوم عصره ان لم يكن كلها . وهذا يظهر لاول وهلة لمن يطالع جدول الكتب التي ضمها العقد . ناهيك في انّ الصبغة الغالبة في اكثر هذه الكتب انما هي صبغة الادب كما كانوا يفهمونه يومذاك ، فكتابه في الاجواد ، وكتابه في الوفود ، وكتابه في مخاطبة الملوك ، وكتابه في العلم والادب ، وكتابه في الامثال ، وكتبه الاخرى في المواعظ والزهد ، والتعازي والمراثي ، وكلام الاعراب ، والخطب ، وفضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه ، والفكاهات والملح ، كل هذه غلب فيها البحث في آداب العرب عموماً واشعارهم بنوع خاصّ ، حتى كتبه التي تبحث في التاريخ والاجتماع والموسيقى لا تخلو من فوائد ادبية كثيرة .

وفي العقد ما لا يقلّ عن عشرة آلاف بيت من الشعر لاكثر من مئتي شاعر من العصر الجاهلي والاموي والعباسي . وربما يصعب ان تذكر شاعراً معروفاً لا ترى عنه خبراً او نتفاً من شعره استشهد بها ابن عبد ربه لمناسبة ما . فالنابغة ، وامرؤ القيس ، وطرفة ، والاعشى ، وحسان ، ولبيد ، وزهير ، وعنترة ، والمهلهل ، وعدي ، وابوذؤيب ، وغيرهم من العصر الجاهلي ؛ وجرير ، والاخطل ، والفرزدق ، وابن ابي ربيعة ، وجميل ، وكثيّر ، وذو الرمّة ، ونصيب ، والمجنون ، والاحوص ، والعرجي ، وغيرهم من عصر الراشدين وبني امية ؛ وبشار ، ومروان بن ابي

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢١٠ ، ولاحظ ورود ذكر « المقامات » في هذه العبارة بصورة تدلّ على انها كانت معروفة قبل بديع الزمان ، وقبل ابن دريد .

٢) ابن عبد ربه ١ : ١٦٦

حفصة ، وابو نواس ، والبحتري ، وابو تمام ، وابو العتاهية ، ومسلم بن الوليد ، وغيرهم من العصر العباسي ؛ كل هؤلاء قد ذكر عنهم اخبارًا كثيرة ونوادر ، وروى لهم شعرًا كثيرًا . ناهيك بما ذكره لغير هؤلاء من المشهورين وغير المشهورين وبنوع خاص لابن عبد ربه نفسه ، فان في العقد اكبر مجموعة شعرية من شعر ابن عبد ربه الذي لم يفقد مع ما فقد في ديوانه . هذا من حيث رواية الشعر واخبار الشعراء . اما من حيث وصف المجالس الادبية والخطب والرسائل فحدّث ولا حرج . ففي العقد كتاب خاصّ ، جعله الواسطة بين جواهر العقد ، ذكر فيه عيون الخطب ، وهو بحق من خير المصادر لمراجعة بعض خطب المتقدمين . زد على ذلك خطب الوفود واقوالهم ، والرسائل المتبادلة بين ناس وناس ، وبنوع خاصّ هذه الرسائل التي تبودلت بين علي ومعاوية والتي ان صحّت نسبتها اليها لتدلّ على ان فنّ انشاء الرسائل الطويلة قد تقدّم عصر عبد الحميد الكاتب ومعلّمه . ففي الرسائل ترسّل واسهاب ، وكنت اودّ لو يتسع المجال لذكر بعضها ، فلتراجع في موضعها[1] .

ومن الخير ان نذكر هنا ايضاً ما في العقد من قصص ونوادر وحكايات اشرنا الى بعضها في بحثنا عن شيء من نواحي خلقه ، جمعها ابن عبد ربه من مصادر شتى ، فيما يظهر ، وجعل اكثرها في كتابين واحد للمتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين ، وآخر للفكاهات والملح . ونرى ان هذين الكتابين من اقدم المجموعات العربية للقصص والنوادر .

كذلك للعقد قيمة ادبية من حيث النقد الادبي . ففيه فصول في النقد نقل بعضها ابن عبد ربه عن الشيباني وغيره من الادباء القدماء يجدر بعلماء النقد الوقوف عليها ، منها مثلاً ما يجب ان يأخذ الكاتب به نفسه في صناعة الكتابة :

« فتخير من الالفاظ ارجحها لفظًا واجزلها واشرفها جوهرًا واكرمها حسبًا واليقها في مكانها واشكلها في موضعها . فان حاولت صنعة رسالة فزن اللفظة قبل ان تخرجها بميزان التصريف اذا عرضت وعاير الكلمة بمعيارها اذا سنحت . فانه ربما مرّ بك موضع يكون

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢٨٤

مخرج الكلام اذا كتبت : انا فاعل ، احسن من ان تكتب : انا افعل ، وموضع آخر يكون فيه استفعلت احلى من فعلت . فادر الكلام على اءكانه وقلبه على جميع وجوهه فاي لفظة رأيتها في المكان الذي ندبتها اليه فاترعها الى المكان الذي اوردها عليه واوقعها فيه . ولاتجعل اللفظة قلقة في موضعها نافرة عن مكانها فانك متى فعلت هجنت الموضع الذي حاولت تحسينه وافسدت المكان الذي اردت اصلاحه . فان وضع الالفاظ في غير اماكنها وقصدك بها الى غير مصابها انما هو كترقيع الثوب الذي لم تشابه رقاعه ولم تتقارب اجزاؤه وخرج من حد الجدة وتغير حسنه . . . كذلك كلما احلولى الكلام وعذب وراق وسهلت مخارجه كان اسهل وارجى في الاسماع واشد اتصالاً بالقلوب واخفّ على الافواه لاسيما ان كان المعنى البديع مترجماً بلفظ مونق شريف ومعايراً بكلام عذب لم يسمه التكليف بميسمه ولم يفسده التعليق باستهلاكه » (١

ومنها :

« وقد رأيتهم شبّهوا المعنى الخفي بالروح الخفي واللفظ الظاهر بالجثمان الظاهر . واذا لم ينهض بالمعنى الشريف الجزل لفظ شريف جزل لم تكن العبارة واضحة ولا النظام متسقاً وتضاءل المعنى الحسن تحت المعنى (كذا) القبيح كتضاؤل الحسناء في الاطمار الرثة . وانما يدل على المعنى اربعة اصناف : لفظ واشارة وعقد وخط . » (٢

وقد نرى في العقد نوادر واخباراً عن الرواة الذين اخذ عنهم كثيراً من اخبار العرب وشعرائها يندر الوقوع عليها في كثير من كتب الادب المختلفة . وقد عني صاحب العقد في كثير من الامور التي عُني بها بعض هؤلاء الرواة . فاذا بلغه مثلاً ان الاصمعي روى : « لم اجد في شعر شاعر بيتاً اوله مَثل وآخره مثل الا ثلاثة ابيات » ــ احدها للحطيئة وآخر لامرئ القيس ــ يذكر الرواية في عقده والشعر ثم يعلّق على الخبر بقوله : « ومثل هذا كثير في القديم والحديث، ولا ادري كيف اغفل القديم منه الاصمعي فمنه قول طرفة . . . ومن ذلك قول الآخر . . . الخ » (٣

وفي العقد كتاب هو الجوهرة في الامثال (٤ فيه مجموعة كبيرة لامثال العرب، قد رتبت وصنفت وبوّبت حسب اقسامها الرئيسية . فترى في اول الكتاب هذا : امثال النبي العربي ، يليها امثال روتها العلماء ، ثم امثال اكثم بن صيفي وبزرجمهر

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢١٦
٢) ابن عبد ربه ٢ : ٢١٧
٣) « « ١ : ٢٥٦
٤) « « ١ : ٣٢٧

الفارسي ، ثم « امثال العرب » عامـة . وترى في باب الامثال التي روتهـا العلماء امثالاً تحت العناوين التالية « مَن ضُرب به المثـل من الناس » ، « من يُضرب به المثل من النسا. » ، « ما تمثلوا به من البهائم » ، « ما ضرب به المثل من غير الحيوان » . وتجد تحت العنوان الاول مثلاً « أسخى من حاتم ، واشجع من ربيعة بن محلم ، وانكى من قيس بن زهير ، واعزّ من كليب بن وائـل الخ »[١] . ومن الخير ان ندوّن هنا ان القسم الاخير من جوهرته هذه ، اي باب « ومن امثال العرب » ، وهو القسم الاكبر في الجوهرة ، قد اخذه فيما يقول عن رواية ابي عبيدة . واذا رجعنا الى الفهرست[٢] نرى ان بين الكتب التي وضعها ابو عبيدة كتاباً اسمه « كتاب الامثال » . فلا يبعد ان يكون هو الكتاب الذي رجع اليه ابن عبد ربه . وقد ذكر ابن عبد ربه انه جوّد هذه الامثال من الآداب التي ادخل فيها ابو عبيدة ، وضمّ الى امثلة العرب القديمـة ما جرى على السنة العامة من الامثال المستعملة ، وفسّر من ذلك ما احتاج الى التفسير[٣] . ومن الخير ان نذكر ايضاً ان الامثال هذه مصنّفة بحسب مواضيعها وهي تقع في نحو مئتي موضوع . فترى مثلاً في موضوع « القصد في المدح » : « من حفنا او رفنا فليقتصد » ، « لا تهرف بما لا تعرف » ، « شاكـه ابا يسار من دون ذا ينفق الحمار » . وفي موضوع « حمية القريب وان كان مبغضاً » : « آكل لحمي ولا ادعه يؤ كل » ، « لا تعدم من ابن عمك نصراً » ، « كفّ منك وان كانت شلّاء » الخ . ويظهر لنا ان هذا التبويب مأخوذ عن ابي عبيدة ، اذ ترى من سياق ذكر ابن عبد ربه لهذه الامثال ما يدلّ على ذلك ، قال : « قال ابو عبيدة من امثالهم في الحلم اذ انزل الشرّ فاقعد . . . ومنه قول الآخر : الحلم مطيّـة الجهول . وقولهم : لا ينتصف حليم من جاهـل ، وقولهم : أخر الشر فان شئت تعجلته . وقولهم الخ . »[٤]

وفي العقد كتاب خاص عن اعاريض الشعر وعلل القوافي ، فيه ارجوزة من نظم ابن عبد ربه لا بأس بها من حيث نظم قواعد العروض والمامه بها . وهي

١) ابن عبد ربه ١ : ٣٢٠
٢) ابن النديم ١ : ٥٤—٥٥
٣) « « ١ : ٣٢٢
٤) ابن عبد ربه ١ : ٣٤١

تفيد من يرغب في درس العروض. وقد اتبع ابن عبد ربه الارجوزة بامثلة على ٦٣ ضرباً من ضروب العروض من شعره. وجعل المقطعات، فيما يقول، رقيقة غزلة ليسهل حفظها على السنة الرواة. وضمن في آخر كل مقطعة منها بيتاً قديماً متصلًا بها وداخلًا في معناها من الابيات التي استشهد بها الخليل في عروضه، لتقوم به الحجة لمن روى هذه المقطعات واحتج بها.[1]

وفيه ارجوزة عن مآثر الخليفة الناصر في حروبه أشرنا اليها عند بحثنا عن قيمة العقد التاريخية وذكرنا انها تكاد تكون من اقدم الشعر القصصي الذي يدور على الملاحم ...

ولم يكن ابن عبد ربه اول من نظم الشعر العربي في بعض وقائع التاريخ فقد تقدمه شعراء المشرق في جاهليتهم واسلامهم ولكنهم لم يقصروا قصائدهم على وقائع التاريخ، بل ذكروا فيها فخرهم وحبهم وغير ذلك. كذلك لم يطيلوا في الشعر الذي ذكرت فيه وقائع تاريخية مثل ما اطال ابن عبد ربه؛ لا نستثني الا ابن المعتز، فقد سبق ابن عبد ربه بالزمن وشاركه بطول القصيدة واقتصارها على موضوع واحد عام. ولعلّ ابن عبد ربه قد اخذ شيئاً عن ارجوزة ابن المعتز، لاسيما اذا لاحظنا ان اول ابيات ابن عبد ربه تكاد تشبه من حيث المعنى اول ارجوزة ابن المعتز[2]. ومن يقرأ الارجوزتين يشعر ان ابن المعتز صاحب القسط الاوفر من الفضل والتقدم في هذا المضمار.

كذلك يصدق على قيمته الادبية ما ذكرنا في قيمته التاريخية من امر

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ١٨٨

٢) راجع ديوان ابن المعتز (طبع في مطبعة المحروسة بمصر ١٨٩١) — ج ١ : ١٢٦، وقابل بين ارجوزته هذه في المعتضد وارجوزة ابن عبد ربه في الجزء ٢ من عقده ص ٢٢٦ ترَ وجه الشبه بين الارجوزتين من حيث اللفظ في

الحمد لله على آلائه   احمده، والحمد من نعمائه

يقابلها عند ابن عبد ربه :

فالحمد لله على نعمائه   حمداً جزيلًا وعلى آلائه

ومن حيث المعنى في اتفاقهما بذكر الفوضى التي سبقت حكم كلّ من الخليفتين: المعتضد العباسي، والناصر الاندلسي.

الرجوع الى العقد عند نشر الكتب التي اخذ عنها صاحبه ، والكتب التي استقت من المصادر التي استقى منها ابن عبد ربه نفسه ، وضبط الاشعار ، والتعرف على مختلف الروايات التي تروى عليها.

ولا بد لي من ذكر فضل صاحبه في التبويب والتصنيف ، واجتهاده في ان تقع اكثر موادّ عقده تحت المواضيع التي تلائمها بحيث امتاز على الكثيرين من الذين سبقوه الى هذا الامر وطرقوه قبله .

وهناك في العقد ما له قيمة ادبية وتاريخية بالوقت نفسه ، ألا وهو بحث ابن عبد ربه او جمعه لبعض الامور في اصطلاحات الكتّاب ، واصول المخابرات الرسمية ، وتضمين الاسرار في الكتب . فكأن عمله من هذه الناحية نواة صغيرة لما كتبه في صبح الاعشى ابو العباس القلقشندي . ولا بأس في ان نذكر لمن يهمهم الاطلاع على هذا الامر بعض الامثلة : قال في باب «ما يجوز في الكتابة وما لا يجوز فيها»:

«قال ابراهيم بن محمد الشيباني اذا احتجت الى مخاطبة الملوك والوزراء والعلماء والكتّاب والخطباء والادباء والشعراء واوساط الناس وسوقتهم فخاطب كلًّا على قدر ابهته وجلالته وعلوه وارتفاعه وفطنته وانتباهه واجعل طبقات الكلام على ثمان (كذا) اقسام منها الطبقات العليّة اربع ، والطبقات الاخر وهي دونها اربع لكل طبقة منها درجة ولكل قسمة لا ينبغي للكاتب البليغ ان يقصر باهلها عنها ويقلب معناها الى غيرها . فالحد الاول الطبقات العليا وغايتها القصوى الخلافة ... والطبقة الثانية لوزرائها وكتابها ... والطبقة الثالثة امراء ثغورهم وقواد جنودهم ... والرابعة القضاة ... واما الطبقات الاربع الاخر ... ولكل طبقة من هذه الطبقات معانٍ ومذاهب يجب عليك ان ترعاها في مراسلتك اياهم في كتبك فتزن كلامك في مخاطبتهم بميزانه وتعطيه قسمه وتوفيه نصيبه فانك متى اهملت ذلك واضعته لم آمن عليك ان تعدل بهم عن طريقهم وتسلك بهم غير مسلكهم ... فان البالك المنى وان صح وصرف لفظاً متخلفاً على قدر المكتوب اليه لم تجرِ به عاداتهم تهجين للمعنى واخلال بقدره وظلم بحق المكتوب اليه ونقص ما يجب له . كما ان في اتباع تعارفهم وما انتشرت به عاداتهم وجرت بهم سنتهم قطعاً لعذرهم وخروجاً من حقوقهم وبلوغاً الى غاية مرادهم واسقاطاً لحجة ادبهم . فمن الالفاظ المرغوب عنها والصدور المستوحش منها في كتب السادات والملوك والامراء على اتفاق المعاني مثل ابقاك الله طويلًا وعمرك مليًّا وان كنا نعلم انه لا فرق بين قولهم اطال الله بقاك وبين قولهم ابقاك الله طويلًا ولكنهم جعلوا هذا ارجح وزنًا وانبه قدرًا في المخاطبة كما انهم جعلوا أكرمك الله وابقاك احسن منزلًا في كتب الفضلاء والادباء من جعلت فداك على اشتراك معناه واحتمال ... وكذلك لم يجيزوا ان يكتبوا بمثل ابقاك الله

وابح لك الا في الابن والخادم المنقطع اليك واما في كتب الاخوان فغير جائز بـل مذموم مرغوب عنه. »[١]

وذكر ايضاً نماذج من استهلال الكتب التي تكتب الى خليفة، او الى ولي عهد، او الى والي شرطة، او الى قاض الخ. منها: (صدور الى خليفة): « وفق الله امير المؤمنين بالظفر فيا قلده وأيده واصلح به وعلى يديه ...» ومنها: (صدور الى ولي عهد): « متع الله امير المؤمنين بطول مدة الامير واجرى على يديه فعل الجميل وآنس بولايته المؤمنين » ... ومنها: (صدور الى والي شرطة): « انصف الله بك المظلوم واغاث بك الملهوف وأيدك بالتثبت ووفقك للصواب ...»[٢] وقد ذكر في تضمين الاسرار في الكتب اموراً اوردها كلّها القلقشندي[٣].

قيمة العقد من حيث علوم الدين وشرائعه

لقد كان ابن عبد ربه فقيهاً، كما علمنا، فلا غرو اذا ظهرت آثار هـذه الثقافة الفقهية في عقده. ففيه اخبار كثيرة عن الائمة المختلفين الـذين تقدّموه وشيء كثير من اقوالهم واحكامهم وفتاويهم في بعض المسائل، واختلافهم في بعض امور الدين. وترى مثلاً فوائد كثيرة في بحثه عن الخمر وآراء الائمة في ذلك واختلافهم في حدّها، وفيما اذا كانت محرّمة العين كما حرّمت عين الخنزير، او حرّمت لعرض دخل لها، فاذا زايلها ذلك العرض عادت حلالاً. واحتجاج المحرّمين لقليل النبيذ وكثيره، واحتجاج المحلّين للنبيذ كله. وترى ايضاً في الباب نفسه تعليقات لابن عبد ربه ربما اقتبسها عن ايمة سبقوه منها:

« واما منافعها (يعني الخمر) التي ذكرها الله تعالى في قوله: « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما اكبر من نفعهما »، فانها كثيرة لا تحصى فانها تدرّ الدم تقوي المدة وتصفي اللون وتبعث النشاط وتفتق اللسان ما اخذ منها بقدر الحاجة ولم يجاوز المقدار. فاذا جاوز ذلك عاد نفعها ضرراً. »[٤]

١) ابن عبد ربه ٢: ٢١٣

٢) ابن عبد ربه ٢: ٢٤٤

٣) قابل ابن عبد ربه ٢: ٢١٨، بالقلقشندي ٩: ٢٢٩–٢٣٠

٤) ابن عبد ربه ٣: ٤١٢

ويحس القارئ في مطالعته هذا الباب الذي يدور على الاشربة تساهل ابن عبد ربه – وهو الفقيه – في امر شرب النبيذ ودعوته من ناحية خفية الى تناول شيء منه :

« قالوا : ولولا ان الله تعالى حرّم الخمر في كتابه لكانت سيدة الاشربة . وما ظنك بشراب الشربة الثانية منه اطيب من الاولى والثالثة اطيب من الثانية حتى يؤديك الى ارفق الاشياء وهو النوم . وكل شراب سواها فالشربة الاولى اطيب من الثانية والثانية اطيب من الثالثة حتى تمله وتكرهه » . . . – وه سقى قوم اعرابياً كؤوساً ثم قالوا : كيف تجدك ؟ قال : اجدني اسرّ واجدكم تحسنون اليّ » – وه قالوا ما حرّم الله شيئاً الا عوضنا ما هو خير منه او مثله وقد جعل الله النبيذ عوضاً من الخمر تأخذ منه ما يطيب النفس ويصفي اللون ويهضم الطعام » (١ – وه قالوا في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم كل خمر مسكر وما اسكر الفرق منه فملء الكف حرام هذا كله منسوخ نسخه شربه للصاب يوم حجة الوداع » (٢ – و« دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على قوم يشربون ويوقدون في الاخصاص . فقال : نهيتكم عن معاقرة الشراب فعاقرتم وعن الايقاد في الاخصاص فاوقدتم . وهمّ بتأديبهم . فقالوا : يا امير المؤمنين نهاك الله عن التجسس فتجسست ونهاك عن الدخول بغير اذن فدخلت فقال : هاتان بهاتين . وانصرف وهو يقول : كل الناس افقه منك يا عمر ؛ وانما نهاهم عن المعاقرة وادمان الشراب حتى يسكروا ولم ينهم عن الشراب . . . ولو كان عنده ما شربوا حراماً لحدّهم . » (٣ – « واحتجوا من جهة النظر ان الاشياء كلها حلال الا ما حرّم الله قالوا : فلا تزيل نفس الحلال بالاختلاف ولو كان المحللون فرقة من الناس فكيف وهم اكثر الفرق ؟ واهل الكوفة اجمعون على التحليل لا يختلفون فيه وتلوا قول الله عزّ وجل : قل أرأيتم ما انزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل : الله اذن لكم ام على الله تفترون . » (٤

ويرى القارئ ايضاً فوائد كثيرة في بحث ابن عبد ربه عن « الالحان » ، واختلاف الائمة والفقهاء في امرها ، وآراء المتقدمين من رجال الاسلام الاول فيها . ولا يفوت ابن عبد ربه ايضاً اظهار ميله الى السماع ، وافتاؤه كفقيه بانه حلال .

ويتضمن العقد عدداً ليس بقليل من الاحاديث النبوية يجدر بعلماء الحديث مراجعتها ومقابلتها مع احاديث النبي العربي في الكتب المختلفة . وفيه ايضاً طائفة كبيرة من اخبار قدماء الائمة واصحاب المذاهب واقوالهم وآرائهم وتفسير

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٤١٢   ٢) « « ٣ : ٤١٥

٣) « « ٣ : ٤١٦   ٤) « « ٣ : ٤١٦

بعضهم لبعض آيات القرآن . ومن يقرأ كتاب الياقوتة في العلم والادب يدرك ان قسماً كبيراً منه يدور على اقوال الائمة المتقدمين واصحاب المذاهب كالحسن البصري، وعلي، وعبدالله بن مسعود، والاوزاعي، والزهري، والشيباني، وسفيان الثوري، وسعيد بن المسيب، ومالك بن أنس، وغيرهم، اقوال وآراء لا بدّ لطالب الفقه الاسلامي من الوقوف عليها . وفي هذا الكتاب ايضاً باب في الغلوّ في الدين، وبحث في القول في القدر، وردّ المأمون على الملحدين واهل الاهواء . ثم القول في اصحاب الاهواء من رافضة وغيرهم . في كلها فوائد لها قيمتها . كذلك قد نثر ابن عبد ربه فوائد اخرى تتعلق في الموضوع نفسه في كتاب الجوهرة في الامثال، وكتاب المواعظ والزهد، وكتاب فضائل الشعر، وكتاب الوفود وغيرها.

زد على ذلك ان العقد لا يخلو من بعض روايات واقوال لها صلة بامور الدين والفقه اخذها ابن عبد ربه عن اساتذته في المغرب: الخُشَني، وابن وضاح، وبقي بن مخلد، الذين سبق لنا ان ذكرنا شيئاً عن مكانتهم.

وقد كان ابن عبد ربه مالكي المذهب، شأن اكثر مسلمي الاندلس في ذلك الزمن، وقد ذكر انتسابه الى هذا المذهب عند ذكر اسمه في اول صفحة بالعقد قبل الفهرس والمقدمة.

وربما من الخير ان نشير هنا الى ما ذكرناه عن اعتدال ابن عبد ربه ليس فيما يتعلق بامور الدنيا فحسب، بل فيما له مساس بالدين، فلتراجع هناك.

(له صلة)

البطريركيّة الانطاكيّة

بين الاتحاد والانفصال

بقلم الاب اثناسيوس حاج قب
رئيس المدرسة الشرقية في زحلة

٢ (تتمة)

عصر الاضطراب (١٧٢٤–١٨٣١)

ان سلفسترس بما نال من البراءات بدأ يضطهد كيرلس واساقفته وجميع المنتمين اليه فهرب كيرلس الى قرب دير المخلص[١] . اما كاثوليك حلب والشام فقد اظهروا ثباتاً وايماناً عظيمين. وقد ابدى الرهبان الحناويون والمخلصيون غيرة عظيمة في الدفاع عن الكثلكة، وتثبيت الكاثوليكيين في مدة الاضطهاد . وبفضلهم بقيت الكثلكة مزدهرة خصوصاً في حوران والشام وحلب ولبنان.

ولم تتسرع رومة بتثبيت كيرلس نظرًا لما ادخل من التغييرات الطقسية[٢] هو وافتيميوس الصيفي . غير انها لما انست منه الاستعداد لارجاع الطقوس الى حالها ارسلت له سنة ١٧٣٠ التثبيت الاحتفالي . ثم الباليوم سنة ١٧٤٤

ولما شعر كيرلس بقرب اجاه سمى له خليفة نسيبه اثناسيوس جوهر سنة ١٧٥٩، فاحتج بعض الاساقفة على هذه التسمية. ولذلك ابطلت رومة بطريركية جوهر . وسمت عوضه مكسيموس حكيم ، مطران حلب ، سنة ١٧٦٠ . فلم يرضخ جوهر لهذا الحكم، فرشقته رومة بالحرم. وعلى اثر ذلك مات مكسيموس حكيم فانتخب الاساقفة المقاومون لجوهر اثناسيوس دهان ، مطران بيروت ، وسموه ثيودوسيوس الخامس سنة ١٧٦١ . واخذ جوهر يعمل على منازعة

١) ان سجل الرهبنة الحلبية يذكر هذا الاضطهاد الذي حدث في حلب والشام وامتد الى بعلبك وغيرها .

٢) يأنف بعض الارثوذكس من الاتحاد برومة بدعوى انها تريد ان تُلتِن الشرقيين. فتصرّف رومة مع كيرلس وغيره دليل على شدة حرصها على تقاليدنا وطقوسنا .

البطريركية لدهان ، فجددت رومة حرمه الى ان رضخ سنة ١٧٦٨ . ولم يرتقِ الى البطريركية الا بعد موت ثيودوسيوس ، فانتخب اذ ذاك قانونياً ، وبقي بطريركاً حتى وفاته سنة ١٧٩٤ .

واتى بعده كيرلس سياج ، ثم اغابيوس مطر ، ثم اغناطيوس صروف ، ثم اثناسيوس مطر ، ثم مكاريوس الطويل ، ثم اغناطيوس قطان الذي استلم زمام البطريركية من سنة ١٨١٦ حتى سنة ١٨٣٣ . ففي بطريركية قطان اشتد الاضطهاد جداً على الكاثوليكيين ، وخصوصاً في حلب والشام فقد استشهد سنة ١٨١٧ تسعة ، منهم واحد ماروني حُسب غلطاً انه ملكي كاثوليكي . واستولى اعداء الاتحاد على ما كان يملك الكاثوليك . الا ان هذا الاضطهاد قد زاد الكاثوليك اعتصاماً بايمانهم ، واضطر بعضهم ان يهاجروا الى لبنان او مرسيلية وغيرها . وفي الشام بدأ الاضطهاد سنة ١٨١٩ ، وبقي محتدماً حتى سنة ١٨٣١[١] . كل ذلك كان بمكيدة الاكليروس اليوناني الذي كان يبغض الاكليروس الغربي ، ويرى سيطرته يتقلّص ظلها شيئاً فشيئاً عن بطريركية انطاكية[٢] .

تحرير البطريركية الانطاكية الكاثوليكية وازدهارها

بعد موت قطان ارتقى الى البطريركية مكسيموس مظلوم . فكان بطريركاً ذكياً كثير الحزم جريئاً مهيباً ، حرّر الطائفة من ولاية البطريرك الارمني المدنية ، ونال براءة سلطانية تخوّله الولاية المدنية على بطريركيته الانطاكية والاورشليمية والاسكندرية . ولما كان الاكليروس اليوناني الارثوذكسي يزعم ان لا حق للكهنة الكاثوليكيين بلبس الملابس المعروفة ، وخصوصاً القلنسوة ، قام بين الفئتين عراك طويل من سنة ١٨٣٨ حتى سنة ١٨٤٨ ابدى فيه مكسيموس ثباتاً ودهاء كبيرين .

ان هذا البطريرك قد ردّ بقوة برهانه وغيرته عدداً كبيراً من الارثوذكس ،

---

١) انظر تفاصيله في مجلة «صدى الشرق» الافرنسية سنة ١٩٠٢ ص ١١٢ و ١٦٨ .

٢) ان الاكليروس اليوناني بما زرعه في العقول من الاوهام وفي القلوب من الضغائن قد حال دون تفاهم مؤمني الكرسي الانطاكي واخوانهم الغربيين وأخّر اتحادهم اجيالاً طويلة .

فبلغ عدد طائفته ٧٠,٠٠٠ وافتتح من جديد مدرسة عين تراز لاعداد كهنة علمانيين يساعدون الرهبان في خدمة النفوس ويقومون مقام الكهنة المزوّجين . وقد حمى الطائفة من سمّ التعاليم البروتستانية بمواعظه ورسائله القيّمة ، وقاوم شديدًا اخوية المتعبدات الحلبية التي اسستها الراهبة هندية . واخيرًا مات عن بطريركية واسعة يرئسها ثلاثة عشر اسقفًا .

وخلفه سنة ١٨٥٦ اكليمنضوس بحوث الذي امر باتباع الحساب الغريغوري سنة ١٨٥٧ ، قبل ان يهيئ الافكار لقبول هذا الامر . فانتهز الفرصة مطران بيروت الذي كانت رومة قد رفضت ترشيحه للبطريركية ، واخذ يقاوم سرًا ، كما ان كاهنًا في الشام وآخر في الاسكندرية عصيا واعلنا الشقاق في كنيستيهما . فحدث اضطراب في الطائفة ، وترك الكثلكة عدد منها فانضموا الى الارثوذكسية . فهال هذا الامر البطريرك فاستقال وانزوى في دير المخلص . ولكن الحبر الاعظم لم يقبل باستعفائه بل حرم المجمع الذي اقامه مطران بيروت للائتمار على البطريرك . وطلب من هذا ان يعمل على ارسال المطران المذكور الى رومة . غير ان مذبحة سنة الستين حالت دون ذلك . وكان لروسية في ذلك الوقت نفوذ كبير في سورية ، فعضدت الارثوذكسية واحيت شأنها . وهذا ما جعل عددًا من المنفصلين يبقون مصرّين على خروجهم من الكنيسة الرومانية ، بينا الآخرون كانوا يعودون الى حضنها شيئًا فشيئًا .

اخيرًا رضي الحبر الاعظم باستقالة بحوث سنة ١٨٦٤ ، فقام بدلًا منه غريغوريوس يوسف وهو من اشهر بطاركة القرن التاسع عشر . هذا عمل على تهدئة الخواطر وارجاع المياه الى مجاريها . وقد امكنه بمساعدة الابوين برنيه اليسوعي وفلابيانوس كفوري الحناوي (مطران بيروت السابق) ان يحيي ابرشية طرابلس ويرفع لواء الكثلكة فيها . وكان قد اظهر في المجمع الفاتيكاني صعوبة بقبول اقتراح تحديد سلطة الحبر الاعظم . الا انه بعد ان عاد الى لبنان ووصلته تحديدات المجمع المقدس اظهر كل الرضوخ . ومات سنة ١٨٩٧ .

ومن ذلك الحين اخذت البطريركية الانطاكية الكاثوليكية تسير الى الامام مزدهرة سنة فسنة ، موثقة عرى اتحادها بالكرسي الروماني ، ومجتذبة

اليها في انحاء شتى عددًا وافرًا من اخواننا الارثوذكسيين.

البطريركية الانطاكية الارثوذكسية من سنة ١٧٢٤ الى ايامنا

لقد رأينا ان المجمع القسطنطيني الارثوذكسي رقى سنة ١٧٢٤ سلفسترس اليوناني الى الرتبة البطريركية ليكون خلفاً لاثناسيوس الثالث، وانه ارتقى بالبراءات الشاهانية والاوامر بحطّ كيرلس الكاثوليكي، واضطهاد اتباعه. فهذا الدخيل الذي صرف همه في العمل على ملاشاة الكثلكة بقي بطريركاً نحو اثنتين واربعين سنة قضى معظمها بعيدًا عن بطريركية انطاكية بسبب المقاومة التي اثارها عليه باضطهاداته للكاثوليكيين. ولقد أضر جدًا بالبطريركية الانطاكية بما زرع من النفور والضغائن في قلوب الكاثوليكيين والارثوذكسيين معاً. وكان موته سنة ١٧٦٦.

واقام بطريرك القسطنطينية خلفاً له مطران حلب، فيليمون القسطنطيني، الذي لم يلبث ان مات في السنة التالية سنة ١٧٦٧، بعد ان سمى خلفاً له دانيال اليوناني، وناشد بطريرك القسطنطينية ان يرضى به، ولا يدع الاكليروس الوطني يتسنم عرش البطريركية.

بعد ان قضى دانيال مدة غير قليلة في البطريركية استقال منها. فسمى البطريرك القسطنطيني خلفاً له افتيميوس القبرصي. وبعد موت هذا سنة ١٨١٣ اقيم مقامه سارافيم القسطنطيني الذي اثار اضطهادًا كبيرًا على الكاثوليك، مضاعفاً بذلك اسباب النفور والتباعد بين الطائفتين الشقيقتين.

وقد خلف هذا مطوديوس مطران انكره الذي مات سنة ١٨٥٠. فاقامت القسطنطينية بدلًا منه اياروثاوس اليوناني، مطران بيروت، ولم يكن هذا بافضل ممن سبقوه من اليونان. فتقهقرت الارثوذكسية في ايامه كثيرًا ووصلت الى حال يرثى لها ماديًا وادبيًا ودينيًا.

وعند موته سنة ١٨٨٥ كانت الطائفة قد سئمت من اليونان وسوء سياستهم وسيرتهم، وبنوع خاص من سيرة البطريرك الاخير، فحاولوا تنصيب بطريرك وطني. غير ان القسطنطينية احبطت مساعيهم، وسمت خليفة للمتوفى جراسيموس

اليوناني الذي طمحت ابصاره بعد مدة الى الكرسي الاورشليمي ، فنازع عليها بطريركها ، وفاز ببغيته سنة ١٨٩١ . فسافر الى مقره الجديد بعد ان ترك على الكرسي الانطاكي سبيريدون اليوناني.

وكانت روسية تحاول اذ ذاك مدّ سيطرتها على فلسطين وسورية . فاخذت تشيّد فيهما المدارس والكنائس ، وتعمل على هدم نفوذ الاكليروس اليوناني ونشر مساوئه بين الشعب ، فاكتسبت بكل ذلك ثقة الارثوذكسيين.

ولما قام الشعب يطالب البطريرك اليوناني باقامة مستشفيات ومدارس لرعاياه ، وكان البطريرك قد اعلن عجزه عن ذلك بسبب الديون المتراكمة عليه ، تقدمت الجمعية الروسية للقيام بكل ذلك على نفقتها ، بشرط ان تكون الادارة في يدها ، فقبل اقتراحها . غير ان اعداء البطريرك وشوا به لدى الدولة العثمانية بانه خائن لها وصديق لروسية . اخيرًا حطه الاساقفة عن كرسيه سنة ١٨٩٨ ، واقيم نائبًا عنه جرمانوس اليوناني . ومن ثمّ اجتهد الاساقفة الوطنيون في تنصيب بطريرك منهم . فلما اجتمع الاساقفة في الشام ، وكان عدد الوطنيين منهم ثمانية ، واليونانيين اربعة ، دارت المناقشة حول مسئلة جواز انتخاب بطريرك وطني ، واشتد الجدال بين الفريقين . وفي اليوم التالي نزلوا الى الكنيسة لاقامة حفلة الآلام المقدسة فبدأ النائب البطريركي الصلاة باليونانية . فاجابه احد الاساقفة مقاطعاً اياه باللغة العربية . مما ادى الى بلبلة وخصام وسط الكنيسة ، وتدخل الشرطة لدرء الشرور . وبعد ذلك اجتمع الاساقفة الوطنيون وحطّوا جرمانوس واقاموا ملاتيوس الدوماني بطريركاً سنة ١٨٩٩ ، غير عابئين بالبطريرك القسطنطيني . وفوق ذلك فان البطريرك الجديد لم يلبث ان اقام ، عوض اليونان ، اساقفة وطنيين تاركاً القسطنطينية وشأنها ليخطب صداقة روسية . وهكذا تلاشت سيطرة اليونان في البطريركية الانطاكية .

وبعد ان خلعت الارثوذكسية نير الاكليروس اليوناني الذي استأثر بالمراتب ما ينيف على ١٥٠ سنة تاركاً الاكليروس الوطني في حالة الفقر والجهل ، تسنى لها زماناً يسيرًا ان تجدد حياتها بمساعدة روسية . غير ان سقوط هذه الاخيرة جعلها بلا مرجع ولا عضد ، وقطع كل امل في تقدمها . ولاسيا وان ديورتها

اصبحت مقفرة يكاد البوم ينعق فيها ، واكليروسها العلماني لا يتسنى لاكثره اقتباس العلوم الكافية للقيام بواجبه العظيم في هذه الايام.

واما الشعب فيمكننا ان نقسمه الى ثلاث فئات : فئة المحافظين على الطقوس والعوائد القديمة . وهؤلاء لا يزالون على جانب من التقوى والتدين . الا ان الاوهام التي علقت باذهانهم ضد البابوية ، وقد اورثهم اياها تعصب الاكليروس اليوناني ، تجعلهم متعصبين في ارثوذكسيتهم بعيدين عن الاتحاد . والفئة الثانية تتألف من الشبيبة العصرية المتخرجة في المدارس الانجيلية او العلمانية . وهي لا تحفظ من الارثوذكسية الا الاسم فقط . واما مبادئها فهي مبادئ بروتستانية او عقلية محضة . واما الفئة الثالثة فهي تتألف من اولئك الرجال المفكرين المتنورين الذين قابلوا بين الكنيستين واكليروسيها وحاليها وتأملوا بنوع خاص في حال البطريركية الارثوذكسية في هذه الايام الاخيرة . فرأوا ان لا بد من الاتحاد بالكرسي الروماني ليزلفوا مع اخوتهم الكاثوليك طائفة واحدة قوية عزيزة الجانب رفيعة الشأن .

وعليه فان جاز لنا ان نتساءل عن مصير الارثوذكسية في البطريركية الانطاكية اذا ما بقي رؤساؤها مصرين على مقاطعة رومة ، ناظرين الى البابوية كما الى شبح مخيف ، امكننا القول ان جزءا منها صائر لا محالة (عاجلاً او آجلاً) الى البروتستانية . وجزء آخر نحو رومة عارفاً انها ميناء السلام . فيا حبذا لو كان رؤساء الطائفة الشقيقة يعتبرون حقيقة الخطر البروتستاني وسهولة الاتحاد الروماني وضرورته الحيوية . ويا حبذا لو كان قادة الافكار يضاعفون الجهود لتحقيق الاتحاد الذي يحنّ اليه الجميع كاثوليكيين كانوا ام ارثوذكسيين . اذن لكان الاتحاد يتم ، وقد اصبح على قيد الذراع ، ولكانت الكنيسة الشرقية تعود الى ما كان لها من العز في سالف الايام ، ايام كانت تسطع في سمائها فضيلة القديسين العظام وانوار علماء ملافنتها الاعلام ، ذلك العصر الذهبي عصر الوحدة والوئام . فسلام على تلك الايام ويا حبذا العودة الى الوحدة ، فالوحدة مبدأ القوة والسلام ، والعود اليها احمد اذ لا بد من اتحاد الاعضاء برأس الكنيسة ليفوزوا بطيب الحياة وحسن الختام .

القضاء في لبنان

على عهد الحكم الاقطاعي

بقلم وجيه خوري

مستشار في محكمة الاستئناف والتمييز المختلطة

٣ (تتمة)

كتب المؤلف دولاروك سنة ١٦٨٨ قائلاً: «ان جبال لبنان وجودة مناخه ـــ وهو على ما اعتقد اكثر المناخات اعتدالاً في سورية ـــ عملا دون شك على تهذيب اخلاق الاهالي وجعلها هادئة كريمة . ففي هذا البلد يحتقرون النقائص والكذب والنميمة حتى ان الناس لا يتحدثون عنها ، ولا عن قضايا كبيرة او اختلافات على الفائدة ، او عن انزال عقوبة شائنة باحد الاهلين ، لان الجرم الذي يستحق مثل هذه العقوبة يستحيل وقوعه.»

ويعلق الاب لامنس على ما جاء في كتاب ڤولناي الذي زار بلادنا سنة ١٧٨٤ قائلاً: « ان ڤولناي محقّ في اشارته الى تكاثر السكان في لبنان. فهو في عدد اهليه يوازي افضل مقاطعاتنا . ويرجع ذلك الى الحرية التي يتمتع بها الاهلون . فان القروي هنا يعيش بهدوء وسلام ، واذا لم يكن بسعة زميله في غير لبنان ، فهو على الاقل مطمئن الى حياته وحريته على خلاف ما يجري في المقاطعات التركية المجاورة.»ولم يشاهد لامرتين الا فرقة ضئيلة من رجال الامن العام للمحافظة على النظام والسكينة . وقد ذكر ان نظام الملكية معروف ومحترم ، وهو ينتقل من الاب الى ابنه . ثم يقول في موضع آخر : ذلك ان النظام يسود المقاطعة التي يقطنها الموارنة اذ يمكنك ان تسير فيها بدون رفيق نهاراً وليلاً ، دون ان تخشى سرقة او اعتداء فالجنايات نادرة الوقوع فيها. ويعود ذلك الى التمسك بمبادئ الدين والاخلاق لا الى تنظيم القوانين.

فانتم ترون، والحالة هذه، ان كثرة الشرائع والقوانين ليست هي الدليل على الرخاء والهدوء في البلاد . فان الجهود التي يجب بذلها لتنفيذ القوانين الموجودة هي اكثر فائدة من وضع قوانين جديدة يُقضى عليها بالموت.

عابوا على القضاء في ذلك العهد انه كان غاية في الصرامة. وقد ذكر مؤلف كتاب « رحلة الى الشرق » الذي ظهر سنة ١٨٤٨ « ان لبنان في ذلك العهد كان اكثر رخاء منه على عهد الامير بشير بمائة مرة لان الامير كان يفرض على الجبل من عشرين الى خمسة وعشرين الف كيس . ولم يكن يتراجع امام قطع الرأس او الانف او الاذنين . لذلك غنم الموازنة حين سقوطه مائة بالمائة .

نحن لا ننكر ان الامراء كانوا يعمدون الى اساليب غاية في الصرامة والقساوة حين كانوا يرون سلطانهم مهددًا. واذا كانت العقوبات التي طبقت في ذلك العهد صارمة في نظرنا ، فمنشأ ذلك اننا في حكمنا عليهم تغيب عنا الحالة الاخلاقية في تلك الايام.

ولا يمكننا تقدير تلك الصرامة ووزنها بميزانها الصحيح الا اذا نحن قارنّا بينها وبين الفظاعة التي كانت ترتكب باسم القانون في البلدان المجاورة . وقد رسم الاب لامنس صورة صادقة عن تلك الفظائع في مؤلفه عن سورية قال : ليس في استطاعتنا التبسُّط في تاريخ سورية في ذاك العهد المظلم ! ولعلّ في ذلك بعض الفائدة اذ يمنع السوريين ان يتناسوا ذلك العهد ، فيذكرون الظلم الذي عاش اجدادهم في ظلاله حتى جاءهم الغرب فعاونهم على القضاء عليه . ثم ان ذلك العهد كان شرّ العهود على سورية من حيث اقتصادياتها . فقد كان عبارة عن مجازر وحروب مطّردة بين الباشاوات . ثم يقول في موضع آخر : لقد كان الفائز مَن يزيد في الدفع ، وكانت السلطة في يد باشا لا ضمانة له لبقائه في مركزه الا الاموال التي يبعث بها الى استانبول. فكان يعمل، والحالة هذه ، على الاحتفاظ بمركزه بأن يخلق المشاكل في سبيل افراد الرعية ، ويجمع الاموال لارسالها الى العاصمة، بطرق شتى. وكان ثمن الولاية ، على ما جاء في بعض مقررات قناصل البندقية ، من ثمانين الى مائة الف دوقة ، وثمن وظيفة الدفتردار من اربعين الى خمسين الفاً . اما وظيفة القاضي فكانت ارخص بقليل. وكان هؤلاء

الموظفون يمثلون الدور نفسه. فكان الوالي يستنزف المقاطعة جمعاء، والدفتردار يستنزف الامراء، والقاضي كلّ الذين تقع عليهم يده.

وقد وصف الاستاذ كميل اده، في محاضرته عن مدنية شواطئ البحر المتوسط وعالم الحقوق في سورية، حالة القضاء في العهد التركي. قال: «لم ننسَ بعد الظلم الذي كان يتاز به ذلك العهد. فقد كان يشمل الامبراطورية كلها والمقاطعات البعيدة منها كسورية حيث كانت الرشوة وطمع القاضي بالمال مقياس العدالة الوحيد. ولا يسعنا الا الاعجاب بذلك الحكيم الذي كان ينصح لكل فقير ينشب خلاف بينه وبين غني ان لا يتصف الى القاضي، بل ان يترامى على قدمي خصمه طالباً الرحمة منه. لانه اسهل عليه ان ينال حقه من خصمه من ان يناله من القاضي. وكانت الفوضى سائدة في هذه المقاطعات حتى ان كل موظف كان يحسب نفسه انه ممثل السلطان، فيمارس الحكم مثله. وكان يحدث ان مدير الجمرك يدعو اليه المتقاضيَين مخفورَين، وبعد ان يلفظ قراره بدعواهما يرسل الى سجن الجمرك من لا يرضخ للحكم منهما».

وان هذا الاختلاف في الاوضاع السياسية والقضائية بين لبنان والبلدان المجاورة هو الذي بعث الرغد في جبالنا. وقد قال الاب لامنس في هذا المعنى: «ان الجبل اللبناني كان يستقبل اولئك الهاربين من جور الباشاوات الحاكمين حتى اصبح ملجأ السوريين الوحيد».

وعلى اثر حوادث سنة ١٨٤٠، ونفي الامير بشير الكبير، اظهر خلفه الامير بشير الثالث عجزه عن ان يضع حدّاً للفوضى التي كانت تسود لبنان. فضلًا عن ان تركية كانت، منذ امد بعيد، تتحيّن الفرص لبسط سلطتها المباشرة على لبنان. فنقلت لهذه الغاية مركز الحكومة من عكا وصيدا الى بيروت ليتسنى لها التدخل بصورة مباشرة في القضايا اللبنانية. فاستطاعت ان تثير الدروز على المسيحيين. وقد عجز الامير اللبناني عن قمع الفتنة، فتنازل عن كرسيه. وكان ذلك آخر عهد لبنان بالامراء. واصبح بعد ذاك تحت اشراف الباب العالي الذي شطره الى قائمقاميتين تفصل بينهما طريق بيروت — دمشق. الاولى مارونية في الشمال، والثانية درزية في الجنوب. اما العهد الاقطاعي فقد

ظلّ على حالته ، الا فيما يتعلق بالامراء. فقد حلّت القائمقاميتان محل الامير . على ان الاقطاعية اصيبت بزعيمها ، فلم تلبث ان انقرضت . ونشأ عن تقسيم البلاد الى قائمقاميتين فوضى كانت احدى نتائجها فظائع سنة ١٨٤٥ . فعمدت تركية الى ارسال وزير الخارجية شكيب افندي بصفة مفوّض سام. ليقطع دابر الفتنة. فحسب هذا الاخير ان خير وسيلة لذلك ان ينصب قرب كل قائمقام مجلساً تمثل فيه جميع الطوائف . ثم بعث الى هذه المجالس بتعليماته الشهيرة. وفي العام الثاني من ارسالها وضعت في قالب قانون وافقت عليه السلطات الحاكمة. وقد تألف من هذه التعليمات حلقة جديدة في القضاء هي ، على ما اعتقد ، شرّ من النظام الاقطاعي الذي ساد حتى ذلك التاريخ. وهذا موجز عن ذلك الوضع الجديد:

انشئ في كل قائمقامية مجلس استشاري مهمته معاونة القائمقام في الحكم . وهو يستقلّ بفصل القضايا الخاصّة والعامة ، طبقاً للتقاليد القديمة والنصوص الدينية لدى كل طائفة . وكان القائمقام يرئس المجلس ويشرف على اعماله . اما المجلس فكان مؤلفاً من قاض. ومستشار من كل من الطوائف الآتية: السنية ، والدرزية ، والمارونية ، والارثوذكسية ، والكاثوليكية ، ومن مستشار شيعي واحد ، لان القاضي السني يمثل الشيعيين وهم محمديون مثله . وهؤلاء المستشارون والقضاة ينتخبهم رؤساؤهم الروحيون بالاجماع ! وكانت شروط الانتخاب ثلاثة : اولاً : ان لا يكون المرشح قد خدم في احدى البعثات الاجنبية. ثانياً : ان لا يكون تابعاً لاحدى الدول الاجنبية . ثالثاً : ان يكون من سكان لبنان .

وكانت نتائج الانتخاب تعرض على مشير صيدا فيوافق عليها ، ويثبت المنتخبين في وظائفهم . اما صلاحية المجلس فكانت تتناول ما يلي : ١ً توزيع الضرائب — ٢ً الحكم بين الناس حسب ما يوحيه العدل والقانون والتقاليد القديمة . وكانت التعليمات المعطاة تنصّ على الاصول الواجب اتباعها . وكان استدعاء الدعوى يعرض اولاً على القائمقام ، فاذا رآه جديراً بالاهتمام حوّله الى مستشار طائفة المدعي او قاضيها . وهذا يأمر بجلب المدعى عليه . واذا كان الخلاف واقعاً بين فريقين من طائفة واحدة فان القاضي والمستشار اللذين يمثلانها يفصلان فيه . اما اذا كان واقعاً بين ابناء طائفتين مختلفتين فان مستشاري

الطائفتين وقاضيها يجتمعون للفصل في القضية. اما باقي المستشارين والقضاة فكانوا يتابعون الدعوى في اطوارها حتى اذا اقتضى الامر يتدخلون في حلها. وكثيرًا ما حدث ان اختلف الفريقان من القضاة والمستشارين على الحكم. فكان القائمقام يسعى في ايجاد حلّ موافق، حتى اذا فشل احتكم الفريقان الى احد زملائهم من الذين تابعوا القضية. واذا لم يتفقوا على تسمية هذا الحكم، عيّنه القائمقام بنفسه. وكان القائمقام المرجع الاستئنافي اذ كان في استطاعة المتقاضين ان يستأنفوا الحكم اليه، فيعمد الى اضافة قاض او ثلاثة للنظر مجددًا في الدعوى بحضوره.

على ان هناك عقبة كانت تقف في السبيل. فقد كان يحدث ان الطرفين المتداعيين لا ينتسبان الى قائمقامية واحدة. وقد انتبه شكيب افندي الى هذه الصعوبة فازالها بأن حتم على صاحب الدعوى ان يقدم عريضته الى قائمقامه، وهذا يحيلها الى قائمقام منطقة المدعى عليه الذي يعلم مجلسه بها. وكان الحكم الذي يصدر من هذا الاخير يعاد الى قائمقام المدعي. فاذا لم يرقه يستطيع ان يطلب من قائمقامه احالته الى المجلس من جديد. فاذا صُدّق اصبح مبرمًا، والا فاوراق القضية ترفع الى الوالي. ثم ان القضاة الذين اصدروا هذا القرار يمثلون امام الوالي ويدافعون عن الحكم الذي اصدروه. وكان الوالي يقضي بصورة نهائية.

وفي المسائل القضائية كانت الكلمة للقاضي. ولم يكن للمستشار الا رأي استشاري. اما في المسائل الادارية فقد كان الامر معكوسًا. وكان القائمقام موكلًا بتنفيذ الاحكام.

واننا نرى من قراءة هذه التعليمات ان شكيب افندي كان يحترم الاستقلال التشريعي في لبنان. فقد كان على المجالس ان تطبق في احكامها التقاليد والنصوص الدينية، كما كانت تفعل المحاكم الاقطاعية.

اما في الامور الجزائية فقد كان على الزعماء الاقطاعيين ان يحافظوا على الامن ضمن البلاد. غير ان هؤلاء كانوا يستشيرون معاون القائمقام، وهو منتخب من الطائفة الاقل عددًا، في العقوبة التي يجب انزالها بكل شخص يوقفونه، اذا لم يكن منتميًا الى طائفتهم. وكان القائمقام المرجع الاخير في كل خلاف ينشب بين

الزعماء والمعاون الذي كان عليه ان يسهر على ان لا يقع حيف على ابناء ملته.

وقد بقي القضاء في هذا العهد على ما كان عليه في العهد الاقطاعي اي قضاء دينياً. اذ ان صلاحية القضاة والمستشارين لم تكن تتناول الا ابناء طائفتهم. وهم كان ينتخبهم ابناء ملتهم. وكانت الكلمة الاخيرة للقائمقام الذي خلف الامير في سلطانه وفي هذا تجاوز للسلطة القضائية على السلطة التنفيذية.

ثم ان المعاملات كانت كثيرة التعقيد ولاسيما في القضايا التي كان الفريقان فيها تابعين لقائمقاميتين مختلفتين. ولكن الاحكام التي كانت في هذه الحالة تصدر من المجلسين كانت ساذجة بسيطة، وبقيت الحالة القديمة كما هي رغم ما ادخله شكيب افندي من التغيير.

وقد وصف قنصل انكلترة، في تقرير رفعه بتاريخ ١٤ ايلول سنة ١٨٥٨، حالة الفوضى التي كانت تسود البلاد في ذلك العهد من حوادث القتل عديدة الى ضعف الحكومة المحلية، الى انتشار الرشوة بين الموظفين، حتى كان يستحيل تنفيذ قرار صادر من محكمة تجارة بيروت. وسوء الادارة هذا هو الذي احدث مجازر سنة ١٨٦٠. فتدخلت السلطات الاوربية، باشارة من فرنسة، رغبةً منها في استتباب الامن وايجاد وضع يكفل للبنان الراحة في المستقبل.

ولكن مشروع الدولة الفرنساوية القاضي باعادة التنظيم القديم، تحت اشراف حكومة وطنية، لم يلاقِ لسوء الحظ تأييد الدول الاخرى. فاعطي لبنان قانوناً اساسياً نشأ عنه نزع القوة القضائية من يد الزعماء الاقطاعيين.

وان الموضوع الذي اخترته يتناول الاوضاع القضائية حتى ذلك العهد غير انه لا بد لي، قبل ان انهي بحثي، من ان اشير الى المراحل التي مرّ بها القضاء حتى وصل الى حالته الحاضرة.

لقد نصّ قانون لبنان الاساسي على وجود ثلاث درجات في المحاكم.

اولاً: المحاكم الصلحية. كانت تحكم بصورة مبرمة في الدعاوى التي لا تتجاوز قيمتها المائتي غرش اذا كان المتقاضيان من طائفة واحدة. اما اذا كانا من ملتين مختلفتين ولم يتفقا فكانت صلاحية النظر تنحصر في محاكم المديريات.

ثانياً: المحاكم البدائية وعددها ثلاث، ويمكن اضافة ثلاث اخرى اليها كي

يصبح لكل مديرية محكمة ، اذ ان لبنان كان يقسم الى ست مديريات . وكل هذه المحاكم مؤلفة من ستة اعضاء يمثلون طوائف لبنان الست .

ثالثاً : المجلس الاعلى الموجود في مركز الحاكمية . وهو عبارة عن محكمة استئنافية لمحاكم الملحقات . وكان مؤلفاً من ستة اعضاء يمثلون الطوائف الست ايضاً . وكان يضاف اليهم عضو يهودي ، او عضو بروتستاني في القضايا التي يوجد فيها واحد من ابناء هاتين الطائفتين . ثم انه كان في كل مجلس ستة مدافعين يمثلون الطوائف الست . اما اعضاء المحاكم والمجلس الاعلى فقد كان ينتخبهم مشايخ القرى ويعينهم المتصرف .

ثم ادخل على هذا التنظيم كثير من التغييرات المهمة فيما بعد . ففي سنة ١٨٦٤ الغيت المحاكم الصلحية ، واستبدل بها مشايخ الصلح اي مخاتير القرى في عهدنا . وعندما قسم لبنان الى سبعة اقضية ، اعطي كل قضاء محكمة بدائية . ولكن هذه المحاكم كانت مؤلفة من قاض يؤخذ من الطائفة الاكثر عدداً في القضاء ، ومن نائب ينتخب من الطائفة الثانية في العدد ، وله رأي استشاري فقط . ثم من كاتب يمثل الطائفة الاقل عدداً . اما المجلس الاعلى فبقي على حاله .

وكانت كل قضية يجب ان يفصل فيها بحضور اعضاء المجلس جميعاً . اما اذا كان المتقاضون من طائفة واحدة فقد كان من حقهم ان يرفضوا القضاة الذين ليسوا من ملتهم . وفي هذه الحالة لا يحضر هؤلاء الا في جلسة تفهيم القرار .

وفي الامور الجنائية انشئ ثلاث درجات في المحاكم . فكان مشايخ القرى يفصلون في المخالفات ، ومحاكم البداية في الجنح ، والمجلس الاعلى في القضايا الجنائية . ولم يكن يوضع اي حكم موضع التنفيذ الا بعد مصادقة المتصرف . ولكن توزيع الصلاحية هذا لم يكن الا نظرياً . فان التعديل المذكور لم يحدد المخالفة والجنحة والجناية . ثم ان القوانين المكتوبة لم تكن أدخلت الى لبنان بعد . فلبثت المحاكم الجديدة تطبّق العرف والعادة ومبادئ الشرع حتى سنة ١٨٨٥ ، اذ امر واصا باشا ان يستبدل الوضع القضائي في لبنان بالنظام المتبع في المملكة العثمانية منذ السنة ١٨٧٩ ، اي نظام الدرجات الثلاث . فعل ذلك دون ان يستشير الدول التي وقعت البروتوكول ، وحتّم في الوقت نفسه على المحاكم ان

تتقيد بقوانين السلطنة . وكان سلفاؤه ، حكام لبنان ، قد سمحوا للمحاكم بتطبيق قوانين السلطنة المكتوبة من التي قد تخالف التقاليد المحلية .

وعلى اثر ذلك احتجت الدول في بروتوكول ١٠ آب سنة ١٨٩٢ ، و ١٤ آب سنة ١٨٩٧ ، و ٢٧ ايلول سنة ١٩٠٢ ، وايدت الاحتجاج في تموز سنة ١٩٠٧ .

ولم يعترف مجلس شورى تركية ، في اول الامر ، بالتعديل الذي ادخله حكام لبنان . وفسخت محكمة التمييز في الاستانة بقرار صدر بتاريخ ١٣ حزيران سنة ١٣٢٠ حكماً في قضية جنائية ، لانها اعتبرت ان المحكمة التي اصدرت الحكم تألفت بصورة تخالف الوضع القضائي في لبنان .

وفي الخامس من شباط سنة ١٩١٠ اصدر الشيخ فيليب الخازن كتاباً عنوانه : « استمرار استقلال لبنان التشريعي والقضائي » نادى فيه بأن تُعطى هذه البلاد حق اشتراع قوانينها ، لانه رأى ان ادخال القوانين التركية ليس الا مخالفة للأصول ، وتجاوزاً على قانون البلاد الاساسي .

وقد اصرّ حكام لبنان على العمل بالحالة الذي انشأها واصا باشا ، رغماً من احتجاج الدول ومطالبة اللبنانيين . وهكذا فان المسألة القانونية لم يكن قد فُصل فيها بعد حين اعلنت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ .

***

هذا هو بالاختصار تاريخ القضاء في لبنان منذ القرن السادس عشر حتى عهدنا الحاضر .

وقد رأينا ان الكيان اللبناني صمد للاحداث التي عصفت بالبلاد المجاورة ، ووقف في وجه المحتلين ، محافظاً على عاداته ، وانظمته ، وقوانينه .

لقد تمتع لبنان في العهد الاقطاعي بالرخاء والراحة . ولدينا على ذلك ادلة جمة . وكان منشأهما البساطة والعدل في القضاء . وعندما قضى الاتراك ، بنفوذهم وباغرائهم زعماء لبنان ، على الاقطاعية التي كانت والسلطة الدينية اساس الاستقلال اللبناني ، عند ذاك اصبح لبنان تحت سيطرة الاتراك وسلطانهم ، ولم يحلّ اي تنظيم جديد محلّ الاقطاعية المنقرضة ، اذ ان الفوضى والاضطراب رافقا المجالس الموكلة بالقضاء بين الناس .

وعلى اثر بروتوكول سنة ١٨٦٢ تمتّع لبنان بسكينة نسبية . ولكن القضاء لم يكن سليماً . يعود ذلك الى انتشار الرشوة ، والى تدخل القضاة في السياسة . وهو امر شاع في ذلك العهد .

وقد كان ضغط المتصرّفين ذوي الصلاحية الواسعة شديداً على القضاء . فكانوا يعينون القضاة ويعزلونهم حسب الاهواء السياسية ، وارادة زعماء الاحزاب . فلم يكن هنالك ضمانة للقضاة . وكان على هؤلاء ان ينتموا الى احد الاحزاب ، او ان يتقيدوا بارادة الزعماء ، ويعملوا بمشيئتهم .

وقد تألم اللبنانيون لذلك وعرفوا ان العدل لا يسلم الا اذا وجد في جو هادئ ، بمعزل عن الدسائس السياسية . فاستنجدوا بالدول التي طالبت في بروتوكول سنة ١٨٩٢ بالضمانة للقضاة لانه نظر الباب العالي الى التحوير الذي ادخل على قانون لبنان الاساسي ، ملتمسة منه السهر على تنفيذه ، واحترام الوضع القضائي كما أدخل سنة ١٨٦٤ ، لا كما عدله حكام لبنان دون موافقة الدول المذكورة . وان يكون هنالك ضمانة للقضاة فلا ينقلون او يعزلون الا بعد تحقيق دقيق يقوم به مجلس الادارة . ولكن الحكام لم يعيروا اذناً صاغية لهذا الالتماس .

على ان العهد الحاضر قد كفل للبنان استقلاله . فان قضاته قد سبقوا الشارع في بعض الاحيان . فهم يستمدون احكامهم من القوانين الغربية . وفي بيروت معهد للحقوق يعلّم طلابه مبادئ القوانين الرومانية التي كثيراً ما طبقت في لبنان ، والقوانين الفرنساوية التي خلفت القانون الروماني . ثم ان عندنا قوانين جديدة لاتينية التأثّر ظهر منها قسم ، والقسم الآخر قيد الدرس والتمحيص . ذلك ان لبنان ، كما قال احد رؤساء حكوماتنا اللامعين ، اميل بطبيعته الى الغرب منه الى الشرق ، لانه كان ولا يزال علامة الاتصال بين العالمين .

لم يتمكن الاتراك من القضاء على استقلال لبنان الا بعد ان اجهزوا على طبقة النبلاء التي كانت تحكمه . فليس لنا الا ان نتمنى ان يدوم هذا الاستقلال الذي كفلته الدولة المنتدبة الكريمة . وذلك بفضل طبقة جديدة من النبلاء ، لا نبلاء السيف ، بل نبلاء القضاء والمحاماة .

الامير حيدر احمد الشهابي

وتاريخه
الغرر الحسان في اخبار ابناء الزمان
٢

نسخ الكتاب

لما توفي الامير حيدر أحمد سنة ١٨٣٥ تبعثرت مكتبته وضاعت النسخ الاصلية من تاريخه الخطي. وبقي الحال على هذا المنوال زمناً طويلاً. ولما عُني نعوم افندي مغبغب بطبع هذا التاريخ لم يُوفّق الى نسخة المؤلف نفسه، فاكتفى بما وجده في مكتبة المرسلين الاميركيين في بيروت، ونشر نسخة القس عالي سميث الاميركاني التي لا تزال محفوظة في المكتبة المذكورة. وكنا، قبل ان طلبنا الى حكومتنا اللبنانية الموقرة ان تنشر هذا التاريخ، قد تحققنا وجود نسخ متعددة منه مختلفة من حيث النص والايجاز والاسهاب.

ثم لما عزمنا على نشر الكتاب وراجعنا القسم الاكثر من نسخه الخطية، وجدنا انها تجتمع في فصيلتين كبيرتين ترجع احداهما الى نسخة القس عالي سميث، والاخرى الى نسخة غيرها لم نكن نعلمها. فدفعنا الأمر الى التفتيش بين هذه النسخ لعلّنا نجد نسخة المؤلف نفسه. ولاحظنا عندئذٍ ان نسخة الآباء اليسوعيين رقم ١٦٠ تبتدئ بهذه العبارة «الجزو الثاني من تاريخنا المسما غرر الحسان في اخبار ابنا الزمان». ومما لفت نظرنا ايضاً الاختلاف بين خط هذه العبارة وخط سائر المخطوطة. فاعتقدنا انها نُسخة المؤلف، وذهبنا نفتّش عن نماذج من خطه لاجل المقابلة. فقصدنا اولاً المقرّ البطريركي في بكركي، وبعد الفحص والتدقيق لم نجد اثرًا واحدًا من خطّه فيها، اذ ان جميع الصكوك التي تتعلّق به هي بخطّ غيره وليس عليها من آثاره سوى خاتمه المعروف.

عندئذٍ طلبنا الى حضرات العلماء المؤرخين الخوري بولس قرألي، والخوري

قسطنطين الباشا، وعيسى افندي اسكندر المعلوف، وسليمان بك عز الدين، ان يتولونا بلطفهم المعهود ويساعدونا في التفتيش. فتوجهنا جميعنا الى دير القرقفة، ودير مار جرجس الشير، فلم نظفر بشيء من آثار الامير الخطية. ومن ثمّ قصدنا دير السيدة في شملان، فعثرنا في مجموعة صكوكه الشرعية على عدد وافر من الحجج التي ترجع الى الامير المؤرخ. وما ان قلّبناها وأنعمنا النظر فيها حتى وجدنا ضالّتنا المنشودة. فهو يقول في احد هذه الصكوك «محرره بخطه حيدر احمد شهاب». وبعد المقابلة بين خط هذه الصكوك وخط العبارة الواردة في اول النسخة اليسوعية تأكدنا ان القلم والقاعدة والخط في جميعها واحد. وان النسخة المشار اليها هي نسخة المؤلف بالذات. ومما تأكدناه بالطريقة نفسها ان المخطوطة اليسوعية رقم ١٦١، ومخطوطة الجامعة الاميركية رقم ٣٨٠٤٤ هما للأمير نفسه ايضاً وتحملان عدداً وافراً من الاسطر بخطه.

وظهر لنا بالوقت نفسه ان قسماً من مخطوطة الجامعة الاميركية رقم ٣٨٠٤٤ هو بخط مَن كتب بعض صكوك الامير الموجودة الآن في بكركي وشملان، وقد يكون قهرمانه سلوان ابو نحول كما يعتقد الاستاذ المعلوف[1]. ولعلّ القسم الاكبر من المخطوطة اليسوعية رقم ١٦٠ هو بخط الشدياق انطون الديراني، وذلك بدليل ما نقله الينا حضرة القس انطونيوس شبلي اللبناني عن القس عبد الاحد حيتوره اللبناني من ان الشدياق انطون كان من كتّاب الامير المؤرخ.

ولما كانت هذه النسخ الثلاث لا تعي الا اخبار الجزءين الاخيرين من تاريخ الامير المذكور، نرى من الواجب علينا ان نجد نسخة اصلية للقسم الاول. أو، اذا تعذّر ذلك، علينا ان نجد ما يحلّ محلّها من الدقة والأمانة في النقل. فنقول اننا لم نُوفّق حتى الساعة الى العثور على نسخة اصلية للقسم الاول من هذا التاريخ. ولذا نرانا مضطرّين ان نقبل القسم الاول من نسخة عالي سميث ونحلّه محلّ الاصل المفقود. وذلك لان القس عالي سميث قال سنة ١٨٤٩، في المجلة الاسيوية الالمانية، انه استنسخ هذا القسم من تاريخ الامير حيدر عن

١) ولعلّه الذي عناه الشدياق بقوله: «فكان مفوضاً اموره المعاشية الى رجل لئيم شرس الاخلاق عبدِهِ» (الساق على الساق، ص٢٧-٢٨)

نسخة المؤلف نفسها[1] . هذا ولا يخفى ما كان عليه صاحب الكلام من العلم العالي والاخلاق الطيبة ، فهو ممن عُرف بالصدق ومن الذين لا يتَّهمون فمايقولون

فنكون ، والحالة هذه ، قد ظفرنا بالاصل نفسه لتاريخ لبنان في عهد الامراء الشهابيين ، وبنسخة عن الاصل للاخبار التي سبقت زمن الشهابيين . فلنتفرّغ الآن لفحص هذا التاريخ من الوجهتين العلمية والفنية ، فنتأكد قيمته ، ونفيه حقَّه من العناية والاهتمام .

قيمة الكتاب

محتوياته

يتناول هذا التاريخ الأخبار السياسية ، وبعض الأمور الاجتماعية والاقتصادية وشيئاً من الحوادث الطبيعية ، التي جرت في لبنان ، من ناحية خاصة . ويعرض ، من ناحية عامة ، لبعض ما يجري من هذه الحوادث في فلسطين وسورية وسائر اقطار الشرق الادنى ، وبعض البلدان الاوروبية . وجميع ذلك منذ ظهور الدعوة الاسلامية الى قُبيل وفاة المؤلف عام ١٨٣٥ . وهو مرتّب ، مثل غيره من التواريخ العربية ، حسب السنين الهجرية . فيبتدئ بأخبار السنة الاولى للهجرة ، وينتهي بحوادث النصف الاول من القرن الثالث عشر .

اسمه واقسامه

وقد قسّمه المؤلف الى ثلاثة أقسام ينتهي اولها باخبار سنة ١١٠٨هـ. (١٦٩٦م) ، والثاني بحوادث سنة ١٢٣٤هـ. (١٨١٨م) ، والثالث بما ورد قُبيل سنة ١٢٥١هـ. (١٨٣٥م) واسمُه في جميع هذه الاقسام « الغرر الحسان في اخبار ابناء الزمان » . فليس من اسماء خصوصية للاجزاء الثلاثة كما هي الحال في نسخة المرسل الاميركي عالي سميث ، وفي غيرها من النسخ التي ترجع اليها .

مصادره

ويظهر من مطالعة القسم الاول من المؤلَّف ، ان هذا القسم منقول عن تواريخ الطبري ، والمسعودي ، وابن العبري ، وابن الحريري ، وابن سباط ، وغوليلموس صاحب صور ، وبارونيوس ، وصالح بن يحيى ، والخالدي الصفدي .

(1 Z. D. M. G., *Notizen und Correspondenzen*, III, 121-123.

واكثره عن تاريخ الطبري كما صرّح بذلك المؤلف نفسه في المقدمة

أما اخبار الجزئين الاخيرين فانها مأخوذة ، على ما يظهر ، من مذكرات الامير الخصوصية ، ومن الفرمانات الرسمية ، والمخاطبات التي كانت تدور بين ولاة الجبل ورجال الدولة ، ومن اقوال المؤرخين المعاصرين كالقس حنانيا منيّر ، والقس روفائيل كرامه ، والقس قسطنطين طرابلسي ، والمعلم نقولا الترك ، والمعلم يوسف العورا ، والشماس انطونيوس العينطوريني ، ومؤلف تاريخ الجزار ، والجبرتي ، والمعلم ابرهيم العورا في اخبار سليمان باشا وعبدالله باشا ، وغيرهم.

طريقة المؤلف في التدوين – معاونوه

ويتضح من مخطوطاته الاصلية ، ومن اقوال معاصريه انه كان يُعِدّ دفاتره فيأمر كتّابه ان يستنسخوا له هذا الخبر وذاك مما كان لديه من التواريخ ، وان يتركوا بياضاً هنا وهناك لاجل الزيادة . ويظهر ايضاً من مطالعة المخطوطات نفسها ، ومما ورد فيها من خطه ، انه كان ينسخ أحياناً بيده ، وانه كان يقرأ ما يأمر باستنساخه . ولعلّ في اقسام هذا التاريخ ما كان يُملى املاء على النسّاخ ، يدلّ على ذلك بعض الاغلاط الاملائية في كثير من الكلمات التي يظهر الخطأ في كتابتها وتكون صحيحة اذا سُمعت ملفوظة ، كما ورد في تصحيف الشطر التالي: «ولا اهلي ارى اهلي»[1] فكتب الكاتب: «ولا اهلى ارا. اهلى» ، وفي تصحيف «ذاقوا» التي كُتبت «ضاقوا»[2]. وهذا التصحيف الاخير يدلّ على ان الكاتب من بلاد الشوف ، وقد يكون من الدروز او من ابناء القرى المختلطة ، هذا اذا كان المملي لفظ «ذاقوا» بالذال المعجمة . ولا يخفى ان الدروز ومجاوريهم يميلون بلفظ الضاد الى شيء من الصفير ، وهو اللفظ الاصلي . فيكون الكاتب قد رسم الكلمة على حسب لفظه هو . اما اذا كان المملي قد لفظ «داقوا» بالدال المهملة ، وهو كثير بين عامّة لبنان ، فيكون الكاتب إما من نصارى قرى الشوف الداخلة في منطقة الجرد الجنوبي او المناصف ، واما من نصارى المتن الاعلى . وهؤلاء

١) اطلب الصفحة ١٩ من طبعتنا ٢) اطلب الصفحة ٢٢٦ من الطبعة نفسها

يفخمون الدال حتى يخرجونها ضادًا سويّة في ما عدا الصغير. وامثال هذه التصحيفات كثيرة في التاريخ اكتفينا منها بما تقدّم دلالةً على ما تفيدنا من طريقة املاء الكتاب ومن صفات كاتبيه وناسخيه.

وممن تعاطوا مهنة النسخ، لدى الامير المؤرّخ، أحمد فارس الشدياق[1]، وسلوان ابو نحرل، وفرنسيس ابو نجم، والشدياق انطون الديراني. ويروي الشيوخ «ان الامير اجرى الصلات للادباء. فكثروا حوله وساعدوه في تاريخه منهم اسعد الشدياق، والمعلم بطرس كرامه، والقس حنانيا الخ».

وممن اشتهر بتقرّبه من الامير المؤرّخ وباعتنائه بتاريخه «الغرر الحسان» الشيخ نصيف اليازجي. فهو الذي نسخ الجزءين الاخيرين من نسخة عالي سميث المشار اليها آنفاً، بدليل ما كتبه عليهما القس سميث نفسه، وبدليل المقابلة بين خطّهما وخطّ اليازجي بامضائه في مجموعة الڤيكونت فيليب دي طرازي. وقد وجدنا جزءاً من هذا التاريخ بخطّه ايضاً في مكتبة بكركي. ويقول الاستاذ جرجس بك صفا ان نسخة بكركي هي بخط اليازجي الكبير اهداها جرجس بك الى المرحوم البطريرك بولس مسعد. ويظهر من مطالعة هذه النسخ ومقابلتها بنسخ المؤلّف ان الشيخ اليازجي لم يكتفِ بنسخ هذا التاريخ؛ بل اطلق العنان لقلمه، فصحّح، واضاف، ونقّص. وليته لم يفعل !. ونسخته هذه هي أساس الجزءين الاخيرين من طبعة المغيّب التي ظهرت في مصر عام ١٩٠٠. ومَن قابل هذه الطبعة بطبعتنا الحاضرة، ولا سيما ما خصّ موادّ سنة ١١٠٩، و ١١٣٦، و ١١٨٤، بل القسم الاخير بكامله، وجد من الفروق والاصلاحات والاضافات والاختصارات ما يكفي وحده لتبرير قيامنا بهذا العمل الشاق[2].

---

١) الساق على الساق، ص ٢٤

٢) اطلب مقال الاستاذ المعلوف المشار اليه سابقاً في مجلة «الكلية» ١١ : ٢٢٣-٢٣٢

٣) وقد ذكر الاستاذ المعلوف قسماً من اغلاط طبعة المغيّب في المجلة البطريركية المارونية، بعد أن قابل الطبعة المذكورة بنسخته المأخوذة بالحرف عن نسخة المؤلّف الظاهرة اليوم بالطبع.

صفات التاريخ – بعض محاسن الطبعة الجديدة

ولا نرى بدًّا من القول ان الامير المؤرخ لم يعتنِ بضبط اخباره ولم يمحص حقائق تاريخه . وهذا أمر ظاهر لا مجال للجدال فيه . وان من يراجع الاخبار التي سترد في هذا الكتاب المطبوع يرى مثلاً ان القتال الذي جرى بين أسعد باشا والامير ملحم مدوَّن تحت أخبار سنة ١١٥٧هـ. (١٧٤٤م) وتحت أخبار سنة ١١٦٨هـ. (١٧٥٤م) ايضاً . وقد ورد مقتل أحمد زرو التاجر بين اخبار سنة ١٢١٨هـ. (١٨٠٣م) بدلاً من ١٢١٦هـ . (١٨٠١م) كما جاء في الجبرتي ، الى غير ذلك من مظاهر السهو والخطأ .

ومهما يكن من أمر هذا التاريخ فانا نرى له حسنات كثيرة . منها انه اطول الاصول واكبرها لتاريخ لبنان في الآونة الحديثة ؛ وان قسماً مهماً منه دُوّن في العصر الذي وقعت فيه الحوادث ؛ وان راوي بعض الحوادث كان من اقرب المقرّبين لحكام ذلك العصر .

هذا وما يظهر منه الآن هو أكمل وأصح مما ظهر عام ١٩٠٠ في مصر . ذلك ان ما ظهر وقتئذٍ من الجزءين الاخيرين لم يتجاوز الـ ٢٥٠ صفحة بينما الاصل الذى نعنى بنشره الآن والذي يتعلق بالمدة نفسها سيتجاوز الـ ٧٠٠ صفحة . وما ظهر في تلك الطبعة يقف في اخباره عند انتهاء السنة ١٢٣٦ هجرية (١٨٢٠م) . اما ما ننشره اليوم فانه يتناول زيادة على ذلك اخبار السنين الجارية بين ١٢٣٦ و١٢٤٥هـ. (١٨٢٠ و١٨٢٩م) . ومن فوائد هذه الطبعة انها ستشمل جميل ما كتبه المعلم نقولا الترك عن تاريخ الحملة الفرنسوية الى مصر ما طبع منه عام ١٨٣٩ وما لم يزل خطاً[1] . الى غير ذلك من الاختلافات العلمية والفنية المهمة التي تتجلى تماماً لدى المقابلة بين الطبعتين .

هذا هو كتاب الغرر الحسان الذي نعنى به اليوم وهذه هي فوائده .

اسد رستم　　　　فؤاد افرام البستاني

١) راجع في شأن هذا التاريخ ما كتبه الاستاذ المعلوف في «المشرق» (٢٩ [١٩٣١] ٢٨٤–٢٩١)

التذكار المئوي لرحلة لامرتين الى الشرق



لامرتين في لبنان وسورية

تموز ١٨٣٢ — نيسان ١٨٣٣

بقلم ا. سركيس

٢

لامرتين في لبنان وسوريه

لامرتين والشرق

في ١١ تموز سنة ١٨٣٢، ابحر لامرتين من مرسيلية، قاصداً الشرق، على المركب الشراعي «لالست» (L'Alceste)، الذي استأجره لهذه الغاية. وكان يصحبه في رحلته هذه امرأته، وابنته الوحيدة جوليا الضعيفة البنية السقيمة الصحة؛ واميده دي برسڤال (Amédée de Perseval) الذي كان يحبه كشقيق؛ ورفيقان آخران هما السيد دي كمپا (De Campas)، والطبيب لارويير (La Royère)؛ ثم ستة خدام. وقبل ان يغادر شواطئ فرنسة، موّن مركبه بالاسلحة، وحصّنه بثلاثة مدافع، ليحمي نفسه ومن معه من قرصان اليونان في الارخبيل.

ان هذه الرحلة كانت في نفسه منذ زمن بعيد. غير ان حالته المالية لم تسمح له باتمامها؛ فقد كتب في رسالة الى احد اصدقائه: «لو قدر لي ان اجمع مئة ليرة لا غير، لزرت بلاد اليونان واورشليم، حاملاً عصاً وهمياناً، وآكلاً خبزاً قفاراً.» اما الآن، وقد نال، بزواجه من سيدة انكليزية غنية، ثروة تساعده على تحقيق احلام صباه بزيارة الشرق، «منشأ مخيلته»[1] فها هو، بعد

١) كتاب الرحلة الى الشرق *Voyage en Orient.* éd. 1841. Paris. p. I — واليه نشير في ما يلي من المآخذ.

هدوء العواصف السياسية التي مرّت بفرنسة على اثر ثورة تموز ١٨٣٠ ، ويأسه من الحصول على كرسي في الحكومة الجديدة ؛ تسكن موقتاً في قلبه نار الرغبة في تمثيل دور سياسي ، ويستعدّ لتحقيق « حلمه الذي رافقه منذ الطفولة .»[١]

اسباب الرحلة الى الشرق

ولا بدع ان يكون للشرق هذا المقام في قلب لامرتين . فهو سليل اسرة اشتهرت بتقواها ومحافظتها على التقاليد الدينية . وكان اول كتاب تعرف اليه نسخة مصوّرة من الكتاب المقدّس ، علمته امه القراءة فيها . فكانت بعد كل امثولة ، تشرح له مغازي الصور فيتأملها مليّاً . ولم يبلغ الثامنة من عمره حتى كان يحن شوقاً الى « بلاد الكتاب المقدس » حيث جرت الحوادث التي دعاها واحبها قلبه الصغير . « لان المسافة بين حبّ الحوادث ، والرغبة في رؤية المواضع التي جرت فيها ، ليست بطويلة .»[٢]

وتقدم في السن ، فاذا باوربة تموج لحرب اليونان وما يجري في هذا « البلد المسيحي البعيد » من المآسي ؛ واذا بكتّاب فرنسة ، من شعراء وناثرين ، يميلون الى هذه البقعة من الارض ، فيتمثّلون فيها الشرق المظلوم ، وينظمون عنها كل ما يعرفونه ، تاريخاً كان ام اسطورة . واذا ببلاد اليونان خاصة والشرق كله عامة ، قبلة لانظار الادباء ، لا سيا الوجدانيين منهم (Les Romantiques) ؛ واذا بلامرتين — وهو اكبر الوجدانيين — يزداد شوقه الى هذه البلاد !

وفي هذه الاثناء نشر الكاتب الكبير شاتوبريان (١٧٦٨–١٨٤٨) ، بعد رحلته الى الاراضي المقدّسة ، كتابه المعروف باسم «رحلة من باريس الى اورشليم» (*Itinéraire de Paris à Jérusalem*) (١٨١١) . فكانت قراءته وتأمل ما فيه من الاوصاف الشعرية ، المتدفقة بالصور الخلّابة ، باعثاً جديداً هيّج شوق لامرتين الى زيارة المعالم الاغريقية ، والبلاد السورية ، ولا سيا الارض التي عاش فيها السيد المسيح .

كل ذلك أثّر في نفسه تأثيراً جعله ، حتى في عهد شكوكه وحيرته الايمانية

١) الكتاب نفسه ١ : ١ ٢) الكتاب ١ : ٢

ذاتها ، يعتبر ان الصعوبات الدينية لا تجد حلولها الا في الشرق ، منشأ الديانات الالهية .

زد على ذلك انه كان يشعر بضرورة تجديد ينبوع الهامه . لانه « كشاعر عاطفي ، اعتاد فهم اللغة الرائعة التي يتكلمها الله بلسان اعماله . ولما كان قد تشبع من الالفاظ المؤلفة ، لا من اصوات عقيمة ، بل من جبال بلاده ، واحراجها، وانهارها ؛ فقد كان يريد ان يسمع صوت الطبيعة خارجاً عن اوربة . . . »واليك ما قال في هذا الموضوع : « ان نفسي كانت تعشق بجور الشرق ، وصحراواته وجباله ، وعوائده ، وكل آثار الله فيه . »[١]

عدا انه كان يريد نظم ملحمة شعرية كبيرة يجعل من الشرق مسرحاً لها . فقال ، خاتماً البواعث التي حملته على المجيء الى الشرق : « فاذا اراد الله ان يستجيب صلاتي ، فاني اسأله ملحمة تكون حسب رغبتي وطبق ارادته . »[٢]

لامرتين وبلاد اليونان

اخذ لامرتين طريقه من مرسيلية الى شواطئ لبنان ، ماراً مراً سريعاً بمالطة ، واليونان ، وردوس ، وقبرس ، مؤجلاً زيارة هذه البلدان زيارة مطولة الى حين رجوعه .

لكنه ، بخلاف سابقه شاتوبريان ، لم يجد في بلاد اليونان ما كان يتوقعه فيها من الجمال الطبيعي والفني . واليك شيئاً مما قاله في هذا الموضوع ، بعد ان زار احدى المدن اليونانية :

« ليست دار مجلس الشيوخ سوى سفينة من خشب . . . اني اسأل نفسي ، وانا في بلاد اليونان . . . التي اصبحت شيهة بقبر نبشت منه العظام : اين ذلك الجمال الذي مَلَّت الدنيا من تناريطه ؟ . . . اين سماء اليونان الذهبية الصافية ؟ . . . لا ارى الا جواً مظلماً كدراً »[٣]

وقال بعد زيارة البارتنون ، آية الفن اليوناني ، واثمن آثار الهندسة القديمة : « ان تأثير هذا البناء ، لا يناسب في شيء ما ينتظر من مثله . . . فان ما نثره عنه السياح والشعراء والمصورون ، من الاقوال الفخمة الخلابة ، يقع في نفسك موقع الاسى ، عندما تقع

---

١) الكتاب ١ : ١٤
٢) ك . م . ١ : ٢١
٣) ك . م . ١ : ١٠٠-١٠٢

عينك على هذه الحقيقة ، فتجدها بعيدة جداً عن صورهم البيانية ! » (١

ومن المفيد ان نحتفظ بهذه الاحكام لنقابلها بما سيقوله لامرتين عن لبنان. فان بين احتقاره لبلاد اليونان واعجابه ببلادنا لبوناً شاسعاً.

في بلادنا

في بيروت

وفي ٦ ايلول ، بعد اربعين يوماً قضاهـا في البحر المتوسط ، بلغ الى دار امنيته « الارض المقدسة ، حيث جاء من بعيد يفتش عن تذكارات الإنسانيـة الاولى » و« يتأمل اعمال الله في اجمل بلدان العالم . » (٢

ولقد كانت دهشته ومسرته عظيمتين ، عندما اقترب المركب من الشاطئ وظهرت امامه ذرى لبنان ، سابحة في الغمام . قال يصف هذا المشهد وتأثيره عليه ، بعد اول نظرة :

« ان للبنان ميزة لم ارها لا في جبال الالب ولا في الطوروس . فهو مزيج من السنـاء والجلال ، في خطوطـه وفي ذراه ، مع التناسق في التفـاصيل والتنوّع في الالوان . . . انه بالحقيقة لجبل فخم كاسمه ! » (٣

نزل الى بيروت فحلّ ضيفاً في دار القنصليـة الفرنسية ، وفي اليوم الثـاني استأجر بيتاً « على اقدام لبنان ، تحيط به البساتين ، يقع الى جانب المدينة على مسافة عشر دقائق منها » (٤ . فآوى فيه امرأته وابنته التي زادهـا سفر البحر ضعفاً على ضعفها . واتخذ بعدّ العدد اللازمة للسياحة في البلاد ، مبتدئاً ببيروت وجوارها . وقد كان اعجابه بحرج الصنوبر وطيب هوائه عظيماً ، حتى انه قال في ختام وصفه : « هذا ملتقى احلامي ! فسارجع اليه كل يوم . » (٤

ولقد كان لوجود لامرتين وعائلته في بيروت مظهر لم يُعهد من قبل ، على ما يظهر . فـان اللبنانيين لم يكونوا معتادين ان يروا من الاوربيين الا رجال التجارة ، الآتين لكسب المال او لمآرب شخصية اخرى . ولذلك ، عندما عرفوا ان هذا الشاعر لم يأتِ بلادهم الّا للتمتع بجمال الطبيعـة ، ودرس الاخلاق ،

١) ك . م . ١ : ١١١ — ٢) ك . م . ١ : ١٨٢
٣) ك . م . ١ : ١٥٦ — ٤) ك . م . ١ : ١٦٨

واكتساب عواطف جديدة ، تعزّت قلوبهم ، وانشرحت صدورهم ، واحتفوا بـه احتفاءً عظيماً ، مقدّمين له ثقتهم وصداقتهم ، الى حدّ جعله يقول :

«ان ساحة بيتنا مملوءة ابداً من اهل الجبل والمشايخ ، والرهبان ، والنساء ، والاولاد . . . يجيئون من مسافات تقارب المئة كيلومتر احياناً ، ليسلموا علينا ويطلبوا بعض ادوية ، عارضين علينا الضيافة ، اذا كان في عزمنا المرور في اراضيهم . واكثرهم ، اذا لم اقل كلهم ، يجيئون امامهم جداياً لطيفة من خمر البلاد وفاكهتها . ونحن بدورنا نستقبلهم ببشاشة ؛ ونقدم لهم القهوة والغلايين والمرطبات . ثم نهدي اليهم شيئاً لائقاً ، كقطعة من اقمشة اوربة ، او بعض الاسلحة او ساعة او شيء آخر من الحلى والمجوهرات . . . فيرجعون مسرورين من استقبالنا ويذيعون في كل مكان صيت الامير الافرنجي . . . هذا هو الاسم الذي اطلقوه عليّ ! . . . امير الافرنج !» [1]

امير الافرنج (*Prince des Francs*) ! . . . هكذا فهم لامرتين معنى الامير الافرنجي (*Emir Franc*) . ولا ندري اكان ذلك اقتناعاً بانه اصبح حقاً اميراً لاوربة ، ام ان في ذلك بدءاً لتملق التراجمة وتزلفهم .

لامرتين في عرس شرقي

في ١٥ من شهر ايلول ، احتفل في بيروت بعرس ابنة حبيب بربارة ، صديق لامرتين وجاره ، « الذي وجد فيه قلب الصديق الحقيقي » [2] فكان سروره بحضور هذا الاحتفال عظيماً لانه اطلعه ، منذ الايام الاولى لوصوله ، على مظهر هام من عوائد البلاد .

وقد دعيت السيدة لامرتين مع ابنتها الى حمام العروس . فوصفت لزوجها ما جرى في هذا الحمام الذي دام النهار كله ، واشتركت فيه اكثر من مئتي امرأة . فعلق كل ذلك في مذكراته ؛ وكان اشد ما أثّر فيه — او بالاحرى ما اثر في قرينته — « زغاريد » النساء للعروس .

ونحن الذين بدأنا نتناسى عوائد بلادنا القديمة ، لا يمكننا اليوم ان نفهم ما تحدثه من الجلبة ثلاثون او اربعون امرأة يصحن كلهنّ بصوت واحد ، في مكان كل نوافذه محكمة الاغلاق ، كما هي حالة الحمامات العربية .

على ان عادة الزغاريد ، او الزلاغيط ، حسب اللفظ السوري ، لا تزال

1) ك. م. ١ : ١٨٢-١٨٣ 2) ك. م. ٢ : ١١٧

معروفة في كثير من قرى لبنان، ومشهورة في المدن والقرى الداخلية. فيحسن بنا اذن ان نسمع لامرتين يصف هذه الموسيقى. قال:

« عندما تمّ اجتماع النساء كلهنّ، تصاعدت في الهام انغام مستهجنة. فان بعضاً من النساء، لا يغطي القسم الاعلى من اجسامهنّ سوى شفٍّ احمر، اخذن يصحن باصوات مزعجة كثيبة، حادّة، لاعبات على الزمارات، ضاربات على الدفوف. ودامت هذه الموسيقى النهار كله. فكان منها ان افسدت غبطة الحضور بما ادخلته على هذه الحفلة من الجلبة والمغالاة في التدنّه الذي لا يخرج عن حدود البربرية.» (١

« لا جدال في الذوق» يقول المثل. فليس لنا اذن ان نحقد على لامرتين لان اذنه المعتادة سماع الناي والقيثارة لم تلتذ بزغاريد النساء، التي يعجب لها ابناء البلاد. اما عن الرقصة العربية المعروفة بالدبكة فيقول: انها « خالية من اصول الفن، لكنها ليست خالية من الاناقة والجمال.»[٢]

وقد تطرّق الى وصف ازياء النساء في الحفلات وخارج المنازل. وذكر تجلببهن « بالمنشفة» وهي « احرام او شرشف واسع من نسيج ابيض ذهبي، يغطي ملابس النساء الثمينة بكاملها، حين خروجهنّ من المنازل.»[٣]

ولا يزال استعمال هذه «المناشف» جارياً في كثير من قرى سورية الداخلية.

عند استير استنهوب

ولم يمضِ خمسة عشر يوماً على وصول لامرتين، حتى هيأ « قافلة من ٢٥ حصاناً، يقودها كثير من التراجمة والخدّام والاعراب والمصاروة ...» وكان قنصل فرنسة في بيروت وحاكم لبنان من قبل ابراهيم باشا قد سمحا له باستخدام « قواسة» في بيته وفي اسفاره. فسر كثيراً بذلك لانه مما يساعده على السفر بامان، اذ يظهره بمظهر العظمة والاقتدار.

وفي اوائل تشرين الاول سار الى صيدا، ليزور السيدة استنهوب، في خلوتها قرب جون. فتعرف اليها، واستضافها. وجرى له معها حديث طويل، افاض فيه كل منها بمكنونات فؤاده.

١) ك. م. ٠ ١ : ١٧٨
٢) ك. م. ٠ ١ : ٢٩٠
٣) ك. م. ٠ ١ : ١٧٦

اما هذه السيدة العجيبة ، التي شغلت افكار كثير من كتاب الغرب ، فهي ابنة اخت المستر بيت (Pitt) ، الرجل السياسي الشهير (١٧٥٩–١٨٠٦) . تركت بلادها ، انكلترة ، رغم غناها وجمالها وما ينتظرها من المجد . فاقامت مدة في عواصم اوربة . ثم رحلت الى الشرق ، وبلغت سورية بعد اخطار كثيرة في البحر . فتعلمت لغة البلاد وعوائدها . وانفردت في قصر قديم في قرية جون ، قرب صيدا ، عاشت فيه عيشة الملوك والامراء الشرقيين ، بعد ان اقامت مدة في تدمر تنفق على الاعراب عن سعة وافرة وتقدم اليهم الهدايا الثمينة ، حتى اكتسبت قلوبهم اليها ، فاصبحوا يأتمرون بامرها ، واطلقوا عليها لقب « ملكة تدمر » .

وكانت تدعي روح النبوة وتنتظر مجيء مسيح مصلح ، تكون هي ساعده الايمن . ولها في ذلك قصص غريبة . لكن لم يعرف احد بالتحقيق شيئاً عن اخلاق هذه السيدة واطوارها ومقاصدها ، رغم ما بذل في سبيل ذلك من الجهود ، ورغم ما ألّفه عنها كتاب الغرب مثل موريس باريس (Maurice Barrès) ، وپول - هنري - بوردو (Mme Paule — Henry Bordeaux) ولامرتين في رحلته الى الشرق ، وغيرهم .

اما غاية لامرتين من زيارته لاستير استنهوب ، فكانت ، اولًا ، التعرف الى شخصية غريبة كشخصيتها ؛ ثم الاستعانة بنفوذها لدى الاعراب على سياحة هادئة امينة في البلاد السورية . لذلك نراه يخصّها باول سفرة خارج بيروت . والحق ان تعبه لم يضع ، فقد عرف بالاختبار ، في اثناء اسفاره ، ان تأثيرها على البدو افاده اكثر من مرة .

عند الامير بشير

دير القمر — وبيت الدين

خرج لامرتين من عند استير استنهوب ، قاصداً دير القمر ، عاصمة لبنان اذ ذاك . فبلغها عند الظهيرة . وقد اعجبته مناظرها الطبيعية أيّما اعجاب ! اما عن مقامها العمراني والسياسي فيقول : « ان ليس عليها شيء من مسحة المدن ،

فكيف بسحة العواصم !» [١] اجل ! ان دير القمر ليست على شيء من فخفخة العواصم وعمرانها ، اذا شاء لامرتين ان يقيسها بباريس عاصمة بلاده ! ...

ولكنه على كل حال حفظ لها في قلبه – ومذكراته – موضعاً رحباً ؛ لان اشجار الحور التي اظلّته في واديها ، لاول مرة بعد مغادرته وادي ماكون ، ذكرته بايام صباه العذبة وتنزّهاته بين الحور على ضفاف « الصون » فهيّجت في قلبه ذكرى بلاده .

ولم يُطلّ على قصر « بيت الدين » من اعالي « الدير » ، حتى « صرخ صرخة الدهشة والاعجاب ، وبدافع غير اختياري ، اوقف حصانه يتأمل ذلك المشهد الجديد في مناظره الشرقية الفتّانة . » [٢]

هذا كان تأثره من منظر القصر الخارجي وما يحيط به من المظاهر الطبيعية . ولكن منظرًا آخر ، ادعى الى الدهشة ، كان ينتظره في الداخل . ذلك ان خيّالة الامير ، عند وصوله الى الساحات الداخلية ، كانوا يلعبون على ظهور الخيل ويتسابقون في رمي الجريد ، الامر الذي سرّه ولذّه كثيرًا . وقد اعجب لامرتين بهذه الالعاب ، حتى انه لم يرها مرة في اسفاره الا اعاد ذكرها وتناولها بالوصف من جديد .

استقبله الامير بشير بلطفه وكرمه المشهورين واضافه في جناح من قصره ، اقام فيه معززًا مكرماً ؛ [٣] وكان يحضر المجالس الادبية ، والمساجلات ، والمناظرات بين شعراء البلاط ، فوصف كثيرًا منها في كتابه . من ذلك ان « احد كتاب الامير ، وهو من اشهر شعراء البلاد العربية اذ ذاك ... بعث اليه بابيات ... تشوبها الزخرفة والتلاعب اللفظي ... ولكنّ فيها ... مقدرة في الفن وتناسقًا في الافكار ارفع بكثير مما يتصورونه عنها في اوربة .» [٤]

ودونك الآن ما قاله في وصف مجالس المدح الرسمية :

---

١) ك . م . ١ : ٢٥٥ ، ٢) ك . م . ١ : ٢٢٠

٣) في قصر بيت الدين غرفة يسمونها اليوم « غرفة لامرتين » لكن لا يعرف بالتحقيق هل هي التي سكنها لامرتين ام غيرها .

٤) ك . م . ١ : ٢٢٠

« بعد العشاء بعث الينا الامير بعضًا من منشديه وشعرائه ؛ فارتجلوا ابياتًا في مدحنا . وفي حاشية الامير اشخاص مكرسون لهذا النوع من الحفلات . فهم يمثلون الدور ذاته الذي كان يمثله التروبادور (Les Troubadours) في قصور الاجيال الوسطى . . . يغنون منتصبين وراء دست الامير او بنيه ، على طعامهم ؛ وينشدون القصائد في مديح سيدهم ، او في مديح الندماء الذين يشاء سيدهم ان يبالغ في اكرامهم . نقل لنا الترجمان بعضًا من هذه النخب الشعرية ، فوجدناها ، بوجه الاجمال ، قليلة المعاني ، كثيرة التكلف ، حتى اننا لا نستطيع ان نترجمها بافكار وصور تناسب لغاتنا الاوربية . »(١

لكن لامرتين ، على الرغم من هذه الصعوبات ، ترجم قطعة مما انشد في اكرامه ، ننشرها هنا بنصّها الفرنسي تفكهة للقراء ، اذ لم يسعدنا الحظ ان نجد اصلها العربي . وهي مقابلة بين مركب الاوربي ، السابح في البحار ، وحصان العربي ، « الطائر » في الجبال :

Votre vaisseau avait des ailes; mais le coursier de l'Arabe a des ailes aussi;

Ses naseaux, quand il vole sur nos montagnes, font le bruit du vent dans les voiles du navire,

Le mouvement de son galop rapide est comme le roulis pour le cœur des faible;

Mais il réjouit le cœur de l'Arabe.

Puisse son dos être pour vous un siège d'honneur et vous porter souvent au divan de l'Emir (٢

ولم يضع لامرتين فرصة اقامته في بيت الدين سدى . فقد تقصى عن حياة الامير بشير وسياسته وحروبه ؛ ونشر من كل ذلك فصلًا في مذكراته في ٢٢ صفحة[٣] من طبعة ١٨٤١ . هذا عدا ما ذكره من وصف القصر وسكانه والحياة الادبية فيه .

وفي ٣ تشرين الاول ، ودع « الامير الافرنجي » الامير اللبناني شاكرًا له حفاوته وكرمه ، بعد ان اقام في ضيافته عشرة ايام . وخرج في حاشيته قاصدًا بيروت . فاصحبه الامير بشير بعدد من خياله ليدلوه على الطريق ، ويقوموا بحراسته الشرفية .

(له صلة)

١) ك . م . ١ : ٢٢٠-٢٢١ ٢) ك . م . ١ : ٢٢٠

٣) ص ٢٣٢-٢٥٥ ، في الجزء الاول .

الامثال والاساطير اللبنانية

المختصّة باشهر السنة الشمسية

بقلم لحد خاطر

ايار

كان الشهر الثالث من السنة الرومانية قبل الحساب اليولي، ومن ثم اصبح الخامس من السنة حتى اليوم، ولفظه في العربية يقال انه من اصل بابلي بمعنى «الاشراق» ومنهم من يرجعه الى اصل فارسي بمعنى «الربيع». فيه تلبس الطبيعة اجمل زخارفها وتتزين بابدع حلاها من خضرة وزهر ورياحين، يقابلــه باللغات الفرنجية «مه» او «مايو» من «مايوس» اللاتينية المنسوبة الى الالهة «مايا» ام عطارد ورمز الارض الخصبة. كان لها عيد في مطلعه، وفي ٢ منــه كانت تختتم اعياد الآلهة فلورا ربة الزهر. ولعلّ تلك الاعياد هي الاصل لمــا لا يزال يجري حتى اليوم في اكثر الاصقاع خلال شهر ايار من الحفلات اللطيفــة المسماة «اعياد الازهار او حرب الازهار». ومن اول عهد الانتداب شهدنا هذه الاعياد يحتفل بها في بلادنا احتفالات جميلة، نخص منها بالذكر: الاحتفالات التي تقام كل عام في العاصمة بمحلة الزيتونة على اكمل نظام وتشهدها الجماهير. وكان الاقدمون يتطيرون في ايار من عقد الزواج مخافة ان يحل بالمتزوجين فيه مكروه لانه كان عندهم شهر الموتى، ولا يزال بعض الاوربيين حتى اليوم يصدق هذه الخرافة، وقد رأيت في بلادنا من ينهج نهجهم في تصديقها.

ولايار صورة رمزية في قصر اللوفر تمثله بشكل رجل متوسط العمر يلبس ثوباً فضفاضاً بكمين واسعين وعلى رأسه سلة ملأها باجمل الازهار وازهاها.

وليس ايار عند العامة في لبنان بالاسم المستحب فاستبدلوه بـ «نوّار» ومنهم

من لا يعرفه الا بهذا الاسم فيقولون: « نوّار نوّر الدنيا » اي اضاءها ، فكأنهم شقّوه من النُور اي الضياء او الاشراق لزهو شمسه وشدة لمانها ، ولعلهم اخذوه من « النَور » بمعنى الزهر لانه عندهم شهر الازهار ولاسيا الورد كنيسان في الساحل ، ومن اقوالهم في ذلك : « في نوار الورد اقعد بالفي وتذكر ايام البرد »

وتتناقل العامة في لبنان عن لسان الورد في ايار البيتين التاليين :

انا الورد ، انا سيّد كل الزهر شوكي سلاحي ، ونايل رتبتي بالقهر
بغيب عنكم بينة ، وبطلع عليكم شهر ومويتي في قماقمكم طويل الدهر

ولم يبق الورد في لبنان مختصاً بشهر دون سواه لان اجناسه التي تزهر في كل شهر من شهور السنة ، حتى في الشتاء باعالي الجبال ، قد تكاثرت بما جيء منها من الخارج . لكن هذه الاجناس ليست كالورد « الجوري » الخاص بشهر ايار والمعروف في لبنان بجمال منظره وطيب رائحته . وهذا الجنس من الورد يحبه اللبنانيون ويكثرون من زرعه في حدائقهم ، وكان القدماء يأخذون من قضبانه مواسير لقلايينهم بعد ثقبها بسفود من حديد من الطرف الواحد الى الآخر ، وكان للامير بشير في جوار قصره ببيت الدين حديقة جميلة منه اقيم عليها خادم خاص يتعهدها ويقطع منها المواسير للقلايين الاميرية ويعنى بثقبها وتجفيفها .

ومن هذا الجنس من الورد يستقطر اللبنانيون العطر المعروف « بماء الورد » فيتهادونه ويحفظونه في القماقم لينثروه على الناس في حفلات الاعراس والاعياد وعلى الرؤساء والحكام عند زيارتهم لهم او لدى مرورهم في قراهم ، ولينضحوه بما يعدون في منازلهم من مربيات وقهوة وحلويات تجميلاً لطعمها ورائحتها . ولهم في استقطاره طرق بسيطة سهلة توارثوها . منها : ما يجرونه بانبيق خاص من التنك صغير سهل الاستعمال ، ومنها ما يجرونه بقدر من نحاس يربطون على فيها قطعة من قماش شفاف يضعون فيه الزهر وفوقها الغطاء يملأونه بالجمر فيخرج بالحرارة من الزهر بخار يتكاثف ويصير ماء هو ماء الورد المعروف .

وعلى هذا النحو يستقطرون عطر زهر الليمون بانواعه من برتقال ومندرينا وحلو وحامض ويستعملونه كماء الورد . وقد يتناولونه علاجاً في بعض امراضهم لاسيا في « الرثاب » وما يسمونه « وجع القلب »

ويستحبون في ايار من مواليد الماشية «عجول البقر» فيقولون: «لا تقتني الا عجل نوار»، وذلك لان العجل المولود في هذا الشهر يستقبله الطقس الدافئ ويتوافر لامه الكلأ الاخضر علماً فتدر له الحليب الغزير طعاماً فينمو ويشتد ويشب ثوراً مستجمعاً محاسن جنسه وكمالاته.

وللعامة من اللبنانيين عبارات مأثورة تؤذن بمهارتهم في التمييز بين الثيران والاستدلال من سنها ولونها وتركيب اعضائها على ما تصلح له من الغايات، من ذلك قولهم: «اشقر بقر لا تشتري وان صح عندك لا تبيع» ومعناه ان الابقار الشقراء لا يصح منها الا القليل النادر، فالاولى ان لا يقتنى منها الا ما اثبت الاختبار صحته. و«ان صعبت عليك الارض ادر لها هروشها» اي ان الابقار المسنة هي اصلح للحراثة في الاراضي الصلبة من الابقار الفتية. و«ما في لحم الا في العتيق» ويريدون به ان اللحم الدسم الكثير لا يكون الا في الابقار البالغة اشدها والعتيقة الايام. و«استطول وذباح واستقصر وفلاح» ومعناه ان الابقار الطويلة السواعد هي اصلح للذبح وقصيرتها اصلح للحراثة.

ويتخوفون «برد ايار» لسوء اثره في الاجسام والمزروعات والمحاصيل ومن اقوالهم في ذلك: «برد نوار خراب الديار».

اما المطر في ايار فيترقعه الفلاح اللبناني بذاهب الصبر لجزيل فائدته للزروع ومن اقوالهم في مطر ايار: «المطرة في نوار بتسوّى الفلاح وبقراته وبتروّج ولاده وبناته». واذا حصل جفاف في ايار خيف منه أن يصوح الزرع وييبس هبّ الاهلون الى زيارة الكنائس وانارتها بالزيت والشموع رافعين الابتهالات الى الله بقلوب خاشعة لكي يمنّ عليهم بالغيث. وربما نشر رؤساؤهم الدينيون المناشير يفرضون فيها الصوم والصلاة واقامة الزياحات كل مساء لاجل استمطار الغيث. وفي هذه المناسبة يجتمع الاولاد كل عشية ويحملون تمثالاً يؤلف من عود عليه بعض الملابس ويطوفون به في الشوارع وهم ينشدون النشيد الآتي:

يا أم الغيض غيضينا شتّي في اراضينا
شتّي في اراضي الزرع ليكبر وينشينا

ويريدون بأم الغيض او «الغيث» وهي السيدة العذراء عليها السلام التي

خص شهر ايار بتكريها وسمي باسمها «شهر مريم» او «الشهر المريمي». واللبنانيون معروفون منذ القدم بصدق تعبدهم لهذه السيدة وبالتجائهم اليها في كل ملمة لاسيا في ايار شهرها ، وقد تعودوا ان يقيموا لها في اوله وآخره الطوافات الحافلة بايقونتها في شوارعهم او حول كنائسهم بين صنوف الخضرة والرياحين التي يتطوعون لجمعها كبارًا وصغارًا من الحدائق والبراري. وفي بعض القرى يكتفون باقامة خيمة في دار كنيسة الرعية او في الساحة العامة يشيدون فيها مذبحًا تعطى عليه البركة بايقونة السيدة في اول الشهر او آخره تبعًا للعادة المكانية.

وفي ايار يبدأون في الساحل باستغلال الفواكه والبقول والخضر كالمشمش والتفاح والخوخ والكوسا والبندورة واللوبيا والخيار وما شابه ، ويأخذون في الجبال بزرع اغراس التبغ او «شتله» وفي ذلك يقولون :« في نوار خيارة ومشمشة وشتل تتن »و«في عشره نوار خوخة وسنبلة وزر خيار ».

وفي ايار يحين زمن استثار « الشرانق » او « قطفها » فيتبادل المربون المعونة على ذلك ، ويضرب المربي لقطف موسمه موعدًا يدعو اليه اصحابه وجيرانه ويعدّ لهم الطعام ويشتري الحلاوة ، فيلتئمون عنده جماعة ويجمعون الشرانق عن « الشيح » وهي الاغصان التي توضع للدود لتحيك عليها فيالجها بعد تيبيسها وربطها وتكون صنفين :« الكليلة » وهي التي توضع بالعرض على موائد الدود بين الاطباق ، «والحياطة» وهي التي توضع من الوراء لصيق الحيط او الجدار.

وحلاوة القطف كثيرًا ما يشترونها مبادلة بالفيالج تقلًا بعض اثقال. والحلاوة طعام تقليدي في قطف مواسم الحرير لا بد منها. ويقولون في ذلك:«قطاف بلا حلاوة سبب للعداوة ».

ولا يكون زمن قطف الفيالج واحدًا في جميع المناطق اللبنانية ولكنه يختلف باختلاف علو الامكنة عن سطح البحر ولهذا بينا يقول اهل الجبال : « في ايار احمل منجلك وغار » و«في ايار تقول القز اقبر بيك والحقني » يكون اهل الساحل قطفوا قزهم وباعوا فيالجها.

شذرات

مسحة على « التفرنج » في المحادثات في بيروت قبل ستين سنة

تقوم جرائدنا العربية من وقت الى آخر بالحملات الشديدة على مـا تدعوه « تفرنجاً » في المحادثات ، عانية ما يرغب فيه بعض الشبان والشابات من الخلط في احاديثهم بين تعابير اللغتين العربية والفرنسوية . وهي تنكر عليهم الاخذ بهذا « الوباء العصري » ، عاملة على دفع هذا « الخطر » الذي الم ببلادنا بعيد الحرب الكبرى . وهي ، وان كانت على حق في الاشمئزاز من هذا « الخلط » وعلى صواب في التحذير من هذا « الخطر » ، فما نراها مصيبة بجعل هذه الظاهرة عصرية اتتنا على اثر الانتـداب الفرنسوي . ومـا عسى ان يكون استغراب القرّاء اذا اطلعوا على كون الاخذ بهذا التيّار قديماً في بلادنا ـ حتى ان احد ادباء القرن التاسع عشر ، خليل غانم ، الذي كان ترجماناً « لولاية سورية الجليلة » قام منذ ستين سنة يشير الى هذا الخلط الشائن ، فسبق جميع الصحافيين الى الاحتجاج على تلك « المفاوضة المبهمة » ناشراً في مجلة « الجنان » بتاريخ ١ كانون الاول ١٨٧٣ (ص ٨٠٤) مقالاً مسهباً رأينا ان ننشر القسم الاول منه دلالةً على تأصل « الوبأ » المذكور في شباننا منذ ستين سنة ، واطلاعاً للقرّاء على تلك التعابير الفرنسية التي كان يكثر استعمالها بين المتخاطبين حتى من الذين لا يفهمون الفرنسوية ، وقد تغيّر اكثرها اليوم بحكم تبدّل الاحوال . قـال الكـاتب ، على طريقة المحاورة :

— Bonjour ، خواجا ، كيف حالك ؟

— Je vais bien ، كثّر خيرك .

— Et M. votre père كيف حاله ؟

— مبسوط Dieu merci و ma mère اعتراها مرض elle garde le lit

— من كم يوم و quelle maladie ؟

— مرض grave, trés grave

— من طبيكم ؟

— ne me parlez pas de médeçin استدعينا جميع الاطباء qui se trouvent en ville.

— Qu'est-ce vous avez de neuf ?

— لا يوجد شيء de bien saillant · اخبرتنا الـ nouvelles télégraphiques ان الكونت دي شامبور متمسك بدنسيبو .

— Est-ce qu'on trouve خمرة جيّدة في البلد ؟

— Oui عند الخواجا حنا اليان والفرموت الذي يباع dans son magasin c'est quelque chose d'exquis ما هو falsifié .

« وناهيك عن بعض كلام يُستعمل في الحديث مثل : « عملنا له قوبليان » و « اعطيناه rendez-vous » و « تكيتنا » اصلها بالفرنسوية nous sommes quittes ، الى غير ذلك من الكلمات الكثيرة المستعملة بين التجار .»

يذكر الاديب كل هذا ، وكأنه مأخوذ من محادثات اليوم ، ويعلّق عليه باحتجاج ومرارة ودقة ملاحظة لا ينكرها احدث صحافيينا ، فيقول :

« وقصارى الامر اننا نرى المتفرنجين من اهل بلادنا يتكلمون لغة مبهمة لا يدركها من كان جاهلًا للغة الفرنساوية . فلو تكلم البنون بحضور ابائهم (الذين يسمونهم الرجال القدم) بلغة غريبة عن لغتهم فربما كان ذلك يسر الاباء اذ يخيل لهم بان المحروسين اتقنوا اللغات الاوربية . ولكن عندما يسمعونهم يخلطون اللغتين كانه لا فرق بينهما او كانه من الواجب ان المخاطب يعرف اللغة الفرنساوية الا يحق لهم بان يتعجبوا ويتكدروا . »

الحد الاقصى لسرعة السيارات

اجري في ٢٢ شباط من هذه السنة سباق جديد للسيارات فكان السابق السر ملكولم كامبل الانكليزي ، وقد بلغ حدًا اقصى للسرعة مقداره ٤٣٧ كيلومترًا و٨٠٨ امتار في الساعة . وكان هذا الحدّ قبل عشر سنوات ، اي في سنة ١٩١٣ ، ٢١٦ كيلومترًا في الساعة فقط .

مطبوعات شرقية جديدة

Auerbach (Elias) : Wüste und gelobtes Land. *Geschichte Israels von den Anfangen bis zum Tode Salomos.* 18 *planches,* 8 *fig. dans le texte, XII+307 pp. très grand 8°, broché,* 14 *M., Berlin, Kurt Wolff,* 1932

الصحراء والارض المقدسة

تاريخ اسرائيل منذ الاصول الى موت سليمان الحكيم

عاش المؤلف، المقيم اليوم في حيفا، عشرين سنة في فلسطين . فكان له في تاريخ اسرائيل نظرة تنقص من لا يعرف تلك البلاد ومناخها ومواقعها وعادات شعوبها الخ . وقد شاء ان يحدّد في اول كتابه ما يفهم بكتابة التاريخ الحقيقية وما يجب على المؤرّخ فعله حتى يمثّل العصر الغابر المؤرَّخ. ثم نراه يعمل في كتابه كله على التوفيق بين اقوال الكتاب المقدّس وما بلغته من التقدّم العلوم الاثرية والتاريخية العصرية . فيظهر الكتاب تأليفَ اسرائيلي شديد التعلّق بدينه وبماضيه، وعلى اطلاع على النظريات العصرية في اصول الكتاب المقدّس والتاريخ المدني في ما يتعلق منها بتاريخ اسرائيل . وهو يميل الى نزعة المحافظين، مع انتباهه كل الانتباه للمستندات العصرية، بحيث يضع بين ايدي القراء المتوسطي الثقافة كل ما يمكن للاسرائيلي ان يقبله، بل ما يجب عليه ان يُقرّه، في المشاكل التي يثيرها النقد العصري سواء أتى عن طريق منكري الوحي ام عن طريق البروتستانت ام عن طريق النقد المحض . ومثل هذا الكتاب كان مفقودًا في الجماعات اليهودية المثقفة . فبدَ وجوده اذًا هذه الثلمة، ويمكن المسيحيين، والكاثوليك خاصة، من الاطلاع على اي حدّ يصل، في نقد المسائل الكتابية، اسرائيليٌّ مخلص لا يخاف من الوقوف على الامور كما هي . هذا ولا يخفى اننا لا نقرّه في تأريخه لبعض الحوادث الكتابية (ص ٢٢-٣٤) مع كوننا نتفق واياه على الحكم بان المذاهب التي تفرّعت عن نظريات ولهوزن ابعد من ان تدعو الى الثقة والاطمئنان. هذا ولا يخلو المؤلف، في تفتيشه عن حلول بعض المشاكل الصعبة، من المبالغة ومن المجازفة بالاحكام،

لا في الامور النقدية فحسب بل في استخدام بعض الوثائق الاثرية وما اليها . وانّنا نكتفي ، على ذلك ، بمثل واحد . فانه يستنتج ، في ما خصّ الكتابة الابجدية ، ان الاسرائيليين هم الذين اخترعوها (ص ١٤٣) وهو يستخرج هذه النتيجة من امرين غير صحيحين : ١ً ان ابجدية ناووس احيرام من القرن العاشر لا الثالث عشر ، كما تقدّم للكثيرين فبرهنوا عن ذلك . ٢ً ان ابجدية سينا . كانت نسبةً للابجدية التي اخترعها العبريون ، هذا ولم يظهر بعد الظهور الكافي ان لغة كتابات سينا . كانت لغةً سامية .

اما التصاوير فحسنة وبعضها متعدّد الالوان . ونحن بانتظار القسم المتمّم لهذا الكتاب .

Festschrift Georg Jacob: *zum* 70sten *Geburtstag gewidmet von Freunden und Schülern, herausgeg. von* Theod. Menzel. *Avec le portrait de Jacob et* 10 *planches. Prix:* 30 *M. Leipzig, Otto Harrassowitz*, 8 + 381 *pp. gr.* 8°, 1932.

مجلّد مهدى الى جورج جاكوب من اصدقائه وتلامذته بمناسبة التذكار السبعيني لولادته

اشترك سبعة وعشرون من اصدقاء جورج جاكوب وتلامذته في تأليف هذه المجموعة المتعلقة خصوصاً بالمادة التي كرّس لها المكرَّم اعماله . بدأ الكتاب بيكر برسم ادبي لجاكوب بيّن فيه روحه المبتكر ، وعلمه الشامل ، ونفسيّته المتجهة الى العمل ، وميله العميق الى الفنّ . وقد عملت كل هذه الصفات حتى ولّدت فيه استعدادًا الى الاهتمام بالموضوعات التي يهملها الآخرون . فكان موضوعه الاول ، والذي لم يفتأ يرجع اليه في ابحاثه العديدة ، درس العلاقات التجارية بين الشعوب الشرقية وبلاد البلطيك ولاسيما ما اختص منها بتجارة العنبر . وقد ثار في بعض كتاباته على الآداب المدرسية والعربية ، بمعنى انه لم يكن ليقرّ انها تعبّر وحدها عن اعلى مراقي الفكرة المثقفة . ومع انه كان من المقتدرين باللغة العربية كما يدلّ بحثه المفيد عن « الحياة البدوية عند قدماء العرب» فانه كان ميّالًا بالاكثر الى الثقافة التركية ، مؤسساً «المكتبة التركية» . وقد اهتمّ ، فوق ذلك ، بكثير من الموضوعات الشعبية المظاهر فكتب في

تاريخ عرض الصور المشبّحة المعروفة « بالاظلال الصينية » . وكتب كذلك في « الدروشة » ، والفِرَق ، وفي كثير من الابحاث التي لم يسبقه اليها احد ، فكان ممهّدًا للطريق .

اما المجلد الحاضر فحوى قسمًا كبيرًا من الدروس في تاريخ الترك مع نشر نصوص لم يسبق طبعها . وفيه ابحاث في الآداب الفارسية ، وغيرها في الاسلام ، وتاريخ الخلافة ، والحكايات الشعبية ، وشعراء العرب . ونشير ، في هذا الموضوع ، الى بحث للاستاذ كراتشكوفسكي ، الاستاذ في لينغراد واحد قدماء الطلّاب في مكتبنا الشرقي في بيروت ، درس فيه « الخمر في شعر الاخطل » .

واننا نشير ، بين الصور ، الى اللوحات المتعددة الالوان التي تزيّن بحث تيودور منزل في تاج الدراويش مع تمثيل البسة الرأس المتنوعة واسمائها ، وهو بحث يستند الى مخطوط خاص بالدراويش مؤرّخ في السنة ١٨٩٩–١٩٠٠ حصل عليه المؤلف في القسطنطينية . وقد خُتم المجلد بلائحة مفصّلة شاملة لجميع آثار المكرَّم من كتب ومقالات وشذرات .

والخلاصة ان الكتاب مثال من حيث الاتقان والطبع يستحقّ التهانئ للمؤلفين وللطابع .

Khan Sahib Khaja Khan : The philosophy of Islam. *vol. in-8°* *de* 120 *pp.* 2ᵉ *édit. Madras, Hogarth Press.*

فلسفة الاسلام

هذا الكتيّب من تأليف احد مسلمي الهند . وليس فيه ما يستحق الذكر . حتى ان العنوان نفسه فاسد لا يدلّ على مضمون الكتاب . اذ لم يهتمّ المؤلف بدرس تاريخ الفلسفة الاسلامية ، بل عرض بعض التفاصيل المبهمة عن الصوفية في الاسلام . ثم ان اكثر الاعلام المسرودة يتناولها الخطأ بالكتابة . ولقد كان بامكان الكاتب ان يستقي من « تاريخ الفلسفة الاسلامية » للمستشرق الهولندي دي بوير . والى هذا الكتاب المفيد نُحيل من يرغب من قرّائنا في الاطلاع على الموضوع ، فيستعيضون خيرًا عن المؤلّف الهندي . ه . ل .

Henri Bremond : Newman, *essai de biographie psychologique* 1 *vol.* (13×20) *de* 320 *pp. Prix* : 20 *fs. Bloud et Gay, Paris. Réimpression* 1932.

نيومن

لا خلاف في ان ترجمة حياة نيومن للاب هنري بريمون ، عضو المجمع العلمي الفرنسوي ، من اشهر مؤلفات هذا الكاتب الذائع الصيت . وقد جرى في هذا التاريخ على طريقة التحليل النفسي ، متوصلاً الى اعمق اعماق الافكار والعواطف، والمآتي التي كانت تمثل شخصية الكردينال الانكليزي العظيم ، كل ذلك باسلوب تصويري جذاب على قسط وافر من الانتباه لجميع الدقائق واللطائف التعبيرية . فضلاً عن الحياة الروحية السامية التي تشع من بين الصفحات مما جعل للكتاب شهرة حقة تحلّه بجدارة في مقدمة آثار الكاتب ، وكانت طبعته قد نفدت من مدة وكثر طلابه . فاعيد طبعه مؤخراً ، ونحن لا نبالغ اذا قلنا ان هذه الطبعة الجديدة تمثل حدثاً ادبياً ودينياً في منشورات العصر .

A. Ehrhard: Die Kirche der Märtyrer. *gr. in-8° de XII* + 412 *pp. Prix* : 10 *M. Verlag J. Kösel u. Fr. Pustet. München.*

كنيسة الشهداء

ان مؤلف الكتاب من اشهر الاختصاصيين في التاريخ الكنسي ولا سيما في ما خص العصور النصرانية الاولى ، وقد اتى عمله هذا متمماً لسلسلة من الابحاث التمهيدية نشر غايته في القيام بها منذ السنة ١٩١١ ، اذ كان رئيساً لجامعة ستراسبورغ . وهو يعني بالاسم « كنيسة الشهداء » تاريخ الكنيسة منذ نشأتها الى عهد قسطنطين ، شاملاً بذلك كثيراً من الحركات الناتجة عن الوثنية او الانشقاقات النصرانية نفسها . على ان الكنيسة لم تفتأ تتطوّر وتتقدم من حيث اقرار السلطات المتدرجة ، وتقرير العقائد ، والاحتفالات ، والاعياد ، والنظام . وكلها امور خاض فيها المؤلف عن مقدرة وسعة اطلاع ، متضلعاً من موضوعه ، مقدماً للمطالع مادة ناضجة يفهمها بسهولة ويلتذ بمطالعتها .

ج . ل

Luigi de Marchi : Climatologia. 2ª *ediz. U. Hoepli editore. Milano.*

بحث في علم الاقاليم او المناخات

يؤلف هذا الكتاب الصغير حلقةً من كتيبات هوبلي ، وهو مختصر من التآليف الشاملة في موضوع الاقاليم او المناخات جمع في هذه الصفحات القليلة كثيرًا من المعلومات الكافية ، وان لم يكن كاملًا بالطبع . وقد اعيد النظر في اجمعه، في هذه الطبعة الثانية الظاهرة بعد الاولى باثنتين واربعين سنة ، فصرفت العناية الخاصة الى درس الاهوية والاشعاعات الشمسية وما شاكلها من العناصر الجوّية الاوفر تأثيرًا في المناخ . اما معلوماته عن مناخات سورية وفلسطين وشرقي الاردن فكافية صحيحة الا انها عامّة بالطبع ، والمؤلف يذكر فيها معدَّل الحرارة والمطر في ثلاث مناطق : اورشليم ، وطبرية ، وبيروت . ج.ل

F. A. Ossendowski : Lénine. *in-8°. Prix :* 20 *fs. Editions Albin Michel, Paris.*

لينين

هذه ترجمة فرنسوية لكتاب في حياة لينين ، نشرها المترجم دون مقدمة ولا شروح. يظهر لينين من خلالها رجلًا مستبدًا كان يحيا ومن حوله في محيط خيالي فيتكلمون جميعاً كما يتكلم ممثلو السينما ويحيون كذلك . وهو امر يولي الكتاب رشاقة وحياة حتى ان المطالع يستغرق في اللذة لدى قراءته هذه الصفحات الا انه لا يتمالك ان يسأل نفسه : وهل هذا صحيح حقًّا ؟

Jos. Huby s. j. Le discours de Jésus après la Cène [*Collection « Verbum Salutis».*] *in-8° couronne, Gabriel Beauchesne et ses Fils, Paris.*

خطبة يسوع بعد العشاء السري

هو حلقة من مجموعة نالت رضى القرّاء واعجابهم على كونها حديثة الظهور. وهو ما يدفع الى الارتياح اذ يعرف المطالعون بظهور مجلّد جديد من المجموعة وباعداد مجلدين آخرين . اما موضوع الكتاب الحالي فخطبة المسيح بعد العشاء السرّي وهي ما تتضمنه الفصول الخمسة من انجيل يوحنا (١٣-١٨) . كان

المؤلف قد درسها وشرحها في محاضراته التعليمية، وهو اليوم يعرضها على القرّاء بشرح مختصر، مضيفاً اليها بحثاً عن معرفة الايمان عند القديس يوحنا، وكان قد نشر هذا البحث ايضاً في مجلة « الابحاث في العلم الديني » الفرنسوية. ج.ل

Collection « Les cahiers du blé qui lève » n° 5, mes clichés. *Prix : 7 fs, Editions Spes, Paris.*

مجموعة من الصور التعليمية

لا يخفى ما يشعر به الناس كباراً وصغاراً من الحاجة الى الصور، ولاسيما في التعليم وخاصة التعليم المسيحي. ولهذا فقد جُمع عدد من الرسوم في هذا المجلّد مع بعض الايضاحات في كيفية استعمالها، والمعلومات عن طرق استجار القوالب (الكليشيات)، مع الايضاحات عن انتشار هذا الاسلوب في الثمرات الرعوية.

Anouar Hatem : Les poèmes épiques des Croisades. Genèse. Historicité. Localisation. *in-8° de 425 pp. Paris, Geuthner,* 1932.

ملاحم الصليبيين

غاية مؤلف هذا الكتاب ان يدرس الحركة الادبية في ممتلكات الفرنجة في سورية زمن القرون الوسطى، وهو عمل ينيل القائم به فضلاً جزيلاً. لما يذل من الجهود في طرق موضوع لم يجد السبيل اليه احد قبله، وفي محاولته الوصول بهذا الدرس الى افضل ما يمكن. وقد صرف همّه الى اختيار ما يظهر له اوفر تاريخية بين الاناشيد القصصية العديدة الخاصة بالصليبيين، والى البحث عن اصولها، وظروف نشأتها، وفوائدها الحقيقية. فحلّل ملحمة انطاكية، وملحمة اورشليم، وملحمة « الضعفاء »، باحثاً عن مؤلفيها، مقابلاً بين نصوصها وما يُعرف قبلاً من الحوادث التي تشير اليها، مظهراً ما تفيدنا هذه النصوص من المعلومات عن حياة الفرنجة في سورية. ولا يخفى ما لهذه الملاحم من الاهمية من حيث ان مؤلفيها عاشوا في سورية، وعاينوا الحوادث الصليبية عن كثب، وكتبوا اناشيدهم في سورية نفسها.

هذا اهم ما يميّز الكتاب الذي قد يظهر لاول وهلة متضخّم المواد، قليل

الوضوح . على ان المطالع لا يلبث ان يتحقّق ما كلّف المؤلف من جهود ، وما يفرض من سعة اطلاع . بيد ان هذا لا ينفي كون القسم الاول ابعد الاقسام عن الابتكار واقلها ارتباطاً بالموضوع . وهو ما يبحث في نشأة فكرة الصليبية حيث يسهب المؤلف في ذلك معتقداً ان الناس لا يزالون يجهلون مقدمات الحركة الصليبية في التاريخ البعيد حتى يدفعهم هذا الجهل الى الاعتقاد ان الصليبية نشأت فجأةً كمن تولّد ذاتي . وهو امر اقلّ ما يمكن ان نقول عنه ان المؤلف بالغ فيه كل المبالغة . ومما قد نوافقه عليه ان تاريخ القرون الوسطى لم ينتبه الانتباه الكافي للحركة العربية . وهذا ما انتبه له المؤلف كل الانتباه .

ج . ل .

Frank Morison : Le Tombeau Vide. 1 *vol. in*-8° *de* 256 *pp. Prix* : 12 *fs. Editions Contemporaines. Paris*

القبر الخالي

« لقد حدث هذا الامر كما لو كان رجل اراد ان يجتاز غابةً ما ، فسار على الطريق متنقّلاً بين مجازات قد ألفها وعرفها واضحة ، حتى اذا وصل اخيراً الى الجهة المقابلة ، وجد نفسه في نقطة بعيدة كل البعد عن النقطة التي اعتقد اولاً انه يتجه نحوها . »

على هذا الاسلوب يشرح المؤلف كيف اتى كتابه مختلفاً كل الاختلاف عمّا اراد تأليفه . فقد باشر عمله متأثراً بنظريات منكري الوحي التي تشبّعها من تعليم اساتذته ، فاراد ان يوضح حوادث الاسبوع الاخير من حياة المسيح ، ويبرهن ان كل ما جرى اذ ذاك يسهل شرحه بمعزل عن الالتجاء الى ما فوق الطبيعة . الا انه كان كلما تقدم به البحث يتحقق اموراً لم يكن ليعتقد بامكان حدوثها في اول الامر . فتابع العمل بكل اخلاص . واذا به ، في نهاية الكتاب ، يرى نفسه باسطاً الادلة التاريخية على قيامة المسيح . وهو ما يدلّ عليه العنوان « القبر الخالي » .

ومما يمتاز به الكتاب الوضوح التامّ في الاوصاف والتدقيق في تصوير الحالات المتتابعة ابان آلام المسيح . يعبّر عن ذلك باسلوب تصويري جذاب

يرافق الكاتب حتى في ادقّ التحاليل التاريخية فيروق المطالع . وقد اتت الترجمة الفرنسوية موافقة للاصل الانكليزي.

وان المطالع الكاثوليكي اذ يتتبع بارتياح هذه الصفحات الواضحة المخلصة فينبسط لديه تاريخ هذا الارتداد الفكري ، يشعر بقوة الاصول العقلية التي يستند اليها ايمانه . وهو ، اذا ما تجنّب بعض ما يبدو في اقوال الكاتب من اثر الارتياب بالعجائب الذي يدفعه احياناً الى طرح بعض التفاصيل من نصوص الانجيل ، يمكنه ان يطّلع بوضوح تام على بعض نقاط لم تذكرها النصوص المقدّسة الا موجزة مختصرة . واننا نأمل ان المثل الذي يعطيه مؤلف هذا الكتاب يعلّم جميعنا طريقة رزينة مثمرة في قراءة الاناجيل المقدّسة .

ك . ب . هيوز

J. M. Hanssens s. j. : Institutiones liturgicae de ritibus orientalibus. *t. II*, 1930 ; *t. III*, 1932 ; *Appendix ad. t. II et III Indices et versiones* 1932. *De Missa rituum orientalium. Rome, Université Grégorienne, 3 vol. in-8°*

الرتب الطقسية في الطوائف الشرقية

ان درس الرتب الطقسية في الطوائف الشرقية عمل واسع يستغرق خمسة مجلدات بحجم كبير ، يختص الاول منها بالطوائف الشرقية على الجملة ، والثاني والثالث بالقدّاس ، والرابع بالاسرار ، والخامس بالفرض . وان بين يدينا اليوم المجلدين الثاني والثالث وملحقها ، وموضوعها القدّاس . وقد قام المؤلف ، وهو استاذ في الجامعة الغريغورية وفي معهد الدروس الشرقية ، بتعليم هذه المواد قبل ان يعرضها للنشر ، فجمع كل ما امكنه من المستندات التي كان اسهل عليه ان يجدها في رومية منها في محلّ آخر . يبتدئ الجزء الاول (اي المجلد الثاني من المجموعة) بمعلومات عامّة عن القدّاس الشرقي ، واقسامه ، مع بحث واسع في مادة الذبيحة وتدرّج اقسام القداس كما هي في الزمن الحاضر ، وكما ظهرت اثناء تطوّرها التاريخي . ويختصّ الجزء الثاني (اي المجلد الثالث) برتب القداس المختلفة . اما الملحق فيحوي جداول مفيدة تحليلية ، وابجدية ، يليها ترجمات لاتينية للنصوص اليونانية والصقلبية والشرقية .

وفي نظري انه يكفي الاشارة الى هذا الاثر للدلالة على اهميته · حتى اذا انتهى كان لاكليروس الطوائف الشرقية المختلفة اداة صالحة للعمل · ومما يضمن للكتاب مزيد انتشار في البيئات المتنوّعة كونه مكتوباً باللغة اللاتينية · فيتمكن جميع الطلاب الاكليريكيين من تفهم هذه الرتب الطقسية واعتبارها قبل ان يتمرنوا على القيام بها·

ج · ل·

M. Rigaux s. j. : L'équipement social des jeunes. *in*-12 *de* 314 *pp. Prix :* 15 *fs. Paris, Editions Spes.*

تثقيف الشبية ثقافة اجتماعية

هو من انواع « كتب المعلّمين » التي يلجأ اليها الاساتذة لا ليقرأوها دفعة واحدة ، بل ليستفيدوا منها معلومات تساعدهم في عملهم التهذيبي · اما هذا الكتاب فينيلهم موادّ صالحة في تنشئة الشبان الكاثوليك تنشئةً اجتماعية · على ان هذه الموادّ تظهر عديدة متشعّبة قد ينوء بحملها المراهق بين التلامذة ولا يمكن ان ينال منها ، في المدرسة ، الّا تمهيداً خفيفاً · هذا وليس من الحق ان ارباب المدارس انتظروا اليوم حتى يثقفوا تلامذتهم التثقيف الاجتماعي ويطلعوهم على واجباتهم نحو القريب · وقد اكثر المؤلف من النصوص والشواهد والتعاليق في وجوب هذا الامر·

ج · ل·

P. D'Herouville : Le Vincent Ferrier de dix-septième siècle. (Vie du Vénérable P. Julien Maunoir). *in*-8° *carré de* 224 *pp. avec un portrait hors texte, une carte et une cinquantaine d'illustrations par* R.-R. de Coniac. *Prix :* 12 *fs. Editions Dillen et Cie, Paris.*

ترجمة حياة الاب جوليان مونوار ·

المترجم والمترجَم له من مقاطعة بريطانية الفرنسوية · ولم يكن اجدر من الاول بان يكتب تاريخ الثاني فيضعه في محيطه الزماني والمكاني ، واصفاً تلك الغيرة الشديدة التي كانت تدفع بالاب مونوار الى ارشاد المزارعين والفلاحين حتى اصبح يُعدّ مع القديس منصور دي پول والقديس جان اود اعظم وعّاظ الارياف في القرن السابع عشر في فرنسة · والكتاب مزيّن بعدد كبير من الرسوم الجميلة التي تزيد في رونق التأليف وتظهر قربه من المحيط الريفي في بريطانية·

M. Rigaux : A la découverte du monde social. *in*-12. *Paris, Edition Spes*. 6 *fs*.

في اكتشاف العالم الاجتماعي

يهتمّ المؤلف بتثقيف الولد المفطور على الانانية ، فيعرض امـامه انه متعلّق بأسرته ، وبجيرانه ، وببلاده ، وبالعالم اجمع . يكشف له بهـذه الطريقة عن « العالم الاجتماعي » على الطريقة المسيحية ، فيفهم ان ليس المقصود من كل ذلك ان تُزاد واجباته اعتباطاً ، ويشعر ، في شبابه ، بتعقّد الحياة الاجتماعية وصعوباتها.

ج. ل.

شوقي

بقلم انطون الجميّل

٦٥ ص. بقطع ١٢ – مطبعة المعارف ، مصر ، ١٩٣٣

كتيّب لطيف الحجم ، صقيل الورق ، جميل الطبع ، زُيّن بثـلاثة رسوم لاحمد شوقي بك واولاده ، وشمـل ثلاثة ابحاث في الشاعر الكبير كتبها الشيخ انطون الجميّل في ظروف مختلفة . فنشر الاول في ٣٠ نيسان سنـة ١٩٢٧ ، اذ كانت وفود الشرق العربي تحتفل في مصر بتكريم شوقي ، ونشر الثاني يوم وفاة الشاعر ، وقام بلخّص الثالث خطيباً في حفلة التأبين الكبيرة التي عُقدت في مصر بتاريخ ٤ كانون الاول ١٩٣٢ . على ان غاية الناقد في هذه الابحـاث واحدة افصح عنها في المقدمة فقال : « ولقد حاولنا في هذه الدراسات التحليلية ان نُسمه صدى اقواله ، بالاستشهاد بالكثير من شعره تأييداً لما قلنا عنه . » واذاً فالنقد موضوعي بحت مبنيّ على اقوال الشاعر نفسه ، يأخذها الناقد كأنها صورة مخلصـة لعقلية صاحبها ، فلا يناقش مسبّباتها ولا يتعرّض ، في الاكثر ، للظروف التي دعت اليها ، بل انه يستعملها موادّ صالحة لبناء ذاك الصرح الذي حاول ان يقيمه من شخصية شوقي ، والواناً ثابتة لتلـك الصورة التي حاول ان يرسمها لشوقي.

اما هل نجح الناقد في هذه المحاولات ، وهل ابرز صورة صادقـة للشاعر الكبير ، فهو امر لم نكن لنشكّ فيـه لو لم يكن لشوقي غير الابيـات التي

استند اليها ، او لو كانت كل هذه الابيات مرآة صادقة لنزعات الشاعر وميوله . وهو بحث يخرج ، بحصر المعنى ، عن مهمّة الناقد الوضعية ؛ ولكنه لا يخرج عن واجب مؤرّخ الادب الذي انما يبذل الجهد في تحليل شخصية شاعره حتى ادقّ عواملها الخفيّة ، ورسم صورة شاعريته بكل ما فيها من اضواء وظلال . ولعلّ الناقد الاديب تنبّه لهذا الامر اذ قال في ختام بحثه : « بسطنا في ما تقدّم صورةً لامير الشعراء اقتبسنا الالوان والخطوط اللازمة لرسمها من اقواله وتحليل شاعريته وبيان مميزاتها . واذا كان هناك من نقص او عيب ، فالذنب ذنب المصوّر لا ذنب الاصل . » (ص ٨٩)

ونحن لا نرى نقصاً في الصورة التي شاء رسمها ، ولا عيباً في تآلف الالوان التي اختارها . واذا فلم يقتصر الناقد في استغلال موادّه ، بل قد اظهر في ذلك مقدرةً عجيبةً ، ولاسيما في بحثه الاول اذ اخذ على نفسه مهمّة شاقة فاراد ان يبرّر شاعره في تنقلاته السياسية وتقلّب اهوائه المدحية ، وموالاته لكل سلطة ايّة كانت مبادئها ، متنقلاً بقصائده من عبد الحميد الى رجال الحرية ، ومن محمد رشاد الى مصطفى كمال ، ومن اسماعيل الى توفيق ، ومن عباس الى الملك فؤاد . حتى امكن الناقد القول « ان مدائح شوقي صور واستعارات شعرية ، لا عقيدة سياسية » (ص١٧) — او في بحثه الثالث اذ يدرس عمل الاوتار الاساسية في قيثارة شوقي كوتر الدين ، ووتر الوطن ، ووتر الحكمة ، ووتر التصوير ، ووتر العاطفة ، وقد لا يغفل ما يخرج عن هذه الاوتار احياناً من النغمات الشاذّة سواء اكان ذلك في المبالغات المدحية او الاغراقات الوصفية او الابتزالات الحكمية والعاطفية .

ولكن ان كان هناك من اغفال فيكون لا في استغلال الموادّ ولا في تأليف العناصر ، كما قدمنا ، بل في اهمال بعض الخطوط ، او غضّ النظر عن بعض الالوان ، او اخفات بعض النغمات من التي قد تتنافر وجمال التنسيق الفني في هذه الصورة الواحدة ، ولكنها تبدو لنا ضرورية لتصوير نفسية شوقي كما هي ، وهذه النفسية ابعد من ان تُحصر بصورة واضحة الخطوط متناسقة الالوان .

ومهما يكن من امر فالكتاب على قسط وافر من دقة التحليل ، وصحة

التمييز، ومقدرة الاستنتاج، وصواب الاحكام النقدية، في اسلوب شائق، وتأليف متين يحسن بالنقاد ان يقتدوا به من هذا القبيل. ف.ا.ب.

النصرانية والاسلام

ضبطه وعلّق حواشيه الخوري بولس قرألي

١٥٢ ص. بقطع ٨ – مطبعة العلم، بيت شباب، ١٩٣٣

هو دفاع عن الدين المسيحي منسوب الى الاب جرجس راهب دير مار سمعان البحري القائم على ساحل البحر المتوسط بجوار سلوقية المدعوّة اليوم السويدية، القاه المؤلف امام الامير الظافر الملقب بالملك المشتر ابن صلاح الدين الايوبي سنة ١٢٠٧ م. وقد وقف حضرة المؤرخ المنقّب الخوري بولس قرألي، مدير المجلة البطريركية، على عدة نسخ من هذا الدفاع في المكتبة الشرقية، ودير الشير، ودير مار اشعيا، وفيطرون، وعلى نصّ مطبوع. فدرس جميع هذه النسخ وقابل بينها باذلًا الجهد في ضبط النصّ الاصلي وتعليق بعض الحواشي الضرورية، مقدّماً على ذلك بحثاً مفيدًا في المؤلف، وتاريخ الكتاب، وموقع دير مار سمعان، وزمن القاء الدفاع. فخدم التاريخ والدين خدمة جليلة. ودلّ على تقدّم الاساليب الجدلية في ذاك العصر، وتساهل الامير المسلم الذي جرى الدفاع بحضرته. فللناشر الفاضل اخلص الشكر. ف.ا.ب.

اثني عشر عاماً في صحبة امير الشعراء

بقلم احمد عبد الوهاب ابو العز

١٩٢ ص. بقطع ١٦ – مصر ١٩٣٢ – الثمن: ٥ صاغ

كان مؤلف هذا الكتاب سكرتير الفقيد الشاعر مدة اثنتي عشرة سنة، فرافقه في حركاته وسكناته، واطلع على ما لم يطلع عليه غيره من عادات الشاعر الكبير، وافكاره، ونزعاته. فاراد ان ينفع الادب العربي العصري بتدوين ما عرفه عن تلك الشخصية الفذّة، «ومن حقّ الناس ان يعرفوا عنها كل شيء.» كما يقول (ص ٦) فكتب «لا عن شوقي بك بل عن حقيقة شوقي بك، وكيف كان يعيش كوالدٍ لابناء، وكأخٍ لاخوة، وكجدّ لاحفاد،

وكصديق لاصدقاء . . . وكانسان كان يضرب في الحياة ويساهم فيها ليعرف الناس جميعاً انه كان في ابوته واخوته وحفادته وصداقته وفي مساهمته في كل ضروب الحياة عنوان الشاعرية المتدفقة بالعطف والحب والحنان . . . » وهكذا بدأ السكرتير كتابه بملخص حياة شوقي بقلمه مما كان قد سبق نشره بالشوقيات الاولى . ثم ذكر كيف كان شوقي ينظم الشعر ، وبرّه بوالديه واهل بيته ، ودوّن بعض المعلومات عن مهرجانه سنة ١٩٢٧ ، وعن مصيفه بسورية ولبنان سنة ١٩٣٠ ، وآراءه في بعض الرجال ، وبعض المجالس ، وبعض الاحوال . ثم ذكر مؤلفاته ، وكثيراً من عاداته واخلاقه وطرق معيشته حتى في ادقه مظاهرها ، ومرضه الاخير . وخص القسم النهائي بوفاته وما وليها من الحفلات . كل ذلك بلهجة مخلصة وعاطفة معجبة واسلوب سهل لطيف . وقد زيّن الكتاب بالرسوم العديدة ، فاتى جامعاً لما لا يستغني عنه كل اديب اراد درس شخصية الشاعر الكبير . ف . ا . ب .

المسيح اله

للاب واصاف كرم اللبناني

١١٥ ص . بقطع ١٦ صغير — مطبعة دير سيدة المعونات ، جبيل ، ١٩٢٩

مجموعة محاضرات القاها حضرة الاب واصاف كرم اللبناني في كاتدرائية مار ميخائيل المارونية في طرابلس سنة ١٩٢٧ ، وقد تناول فيها الوهية السيد المسيح قاسماً الموضوع ستة اقسام خاض فيها في ستّ محاضرات ، جعل عنوان الاولى : المسيح علة الزمان والانسان واصل الاديان ، والثانية : في وجوب التجسّد ، والثالثة : انا الحقّ ، والرابعة : لماذا فعل المسيح عجائب ، والخامسة : انتشار الدين ، والسادسة : انا الحياة . فنرجو ان يستفيد المطالعون من هذا الكتاب كما استفاد السامعون .

* طاغية القرية * ٢٩ ص . بقطع ٨ ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٣٣ — هي المأساة المؤثرة التي نشرها « المشرق » تباعاً للكاتب المجدّد الاستاذ يوسف غصوب ، طُبعت على حدة بناء على رغبة الكثيرين من عشاق فنّ التمثيل . وهي تباع في المطبعة الكاثوليكية ، وثمنها ١٠ غروش سورية .

اهم حوادث الشرق في شهر

١٥ آذار — ١٥ نيسان ١٩٣٣

لبنان وسوريا — أهديت عدة اوسمة مصرية الى كبار الموظفين.

* دشّن، في مصح بحنّس، القسم المبني جديداً للرجال المصابين بالسل.

* عُقد في بيروت مؤتمر للغرف التجارية في البلاد المشمولة بالانتداب الفرنسوي

* وصل الى بيروت صاحبا الجلالة ملك البلجيك وملكتها قادمَين من القطر المصري ففلسطين، فتفقدا الاماكن الاثرية والمدن التاريخية في لبنان وسورية، مقيمَين من ١٤ الى ٢٠ نيسان.

اللاذقية — دشّن نيافة القاصد الرسولي كنيسة جديدة للآباء الفرنسيسكان

مصر — اكتشف الاستاذ سليم حسن المدن التي كانت للاهرام الاربعة.

* احتفل في ٢٧ آذار باليوبيل الذهبي الكهنوتي لبطريرك الروم الكاثوليك صاحب الغبطة كيرلس التاسع مغبغب.

* افتتح ملك مصر كليتي الشريعة الاسلامية واللغة العربية في الجامع الازهر

العراق — أُلفت وزارة جديدة برئاسة رشيد بك عالي الكيلاني، واعضاؤها: ياسين باشا الهاشمي للمالية، وحكمت سليمان بك للداخلية، ومحمد زكي بك المحامي للعدلية، ونوري باشا السعيد للخارجية، ورستم بك حيدر للاقتصاد والمواصلات، وجلال بابان للدفاع، والسيد عبد المهدي للمعارف.

جزيرة العرب — تفيد الاخبار الواردة من اليمن ان المفاوضات التي جرت في ميدي بين ولي عهد اليمن والسيد الحسن امير عسير انتهت بالاتفاق على ان يعتزل السيد الحسن الثورة، ويقيم في ميدي، ويتقاضى مرتباً شهرياً من الملك ابن سعود. اما الثوار الذين يرابطون في جبال عسير فقد رفضوا الخضوع، ونشبت معركة بينهم وبين القوات السعودية في اواسط آذار.

المطبعة الكاثوليكية المدير المسؤول: يوسف ماهر